

سلسلة حسن الظن بالله عز وجل

المجلد الثالث

حسن الظن حين تتقلب الحياة

مع الفقد والمرض وضيق الرزق

مدارج القلوب

إهداء

إلى من يحمل ألمًا لا يراه الناس، وإلى من يمد إليه يد العون
برفق وصدق. نسأل الله أن يلطف بنا وبكم، وأن يرزقنا الصبر
والرحمة والعمل الذي يرضيه.

ولا تنسنا ووالدينا ومن أعان على هذا العمل من دعوة بخير.

تأليف وتوزيع مدارج

الإصدار ٢٠٢٤

الفهرس

٥	مقدمة
٦	الفصل الأول: حين يأتي ما لم تستعد له
١١	الفصل الثاني: الدمع الذي لا يناقض الإيمان
١٦	الفصل الثالث: دعاء المصيبة ووعده الخلف
٢١	الفصل الرابع: مع المرض وما لا يراه الناس
٢٦	الفصل الخامس: حين يضيق الرزق
٣٠	الفصل السادس: الشكوى إلى الله
٣٥	الفصل السابع: حين تتأذى من الناس
٤١	الفصل الثامن: إذا فُتح الباب بعد طول انتظار
٤٤	الفصل التاسع: حين تنظر إلى ما في أيدي الآخرين
٤٩	الفصل العاشر: الاستغفار حين تضيق اليد
٥٤	الفصل الحادي عشر: حين يغضب القلب
٥٨	الفصل الثاني عشر: الصحة والفراغ قبل أن يتغير اليوم
٦٢	الفصل الثالث عشر: حين تتأخر براءة المظلوم
٧٦	الفصل الرابع عشر: حين تعود العافية ويتسع الرزق

٨٣	الفصل الخامس عشر: حين لا تعرف الحكمة كلها
٩١	الفصل السادس عشر: من يرافق المريض يحتاج إلى رفق أيضًا
٩٦	الفصل السابع عشر: حين تتغير قدرتك ولا تنقص كرامتك
١٠٢	الفصل الثامن عشر: حين تأتي حياتك على غير الصورة التي أردتها
١٠٧	الفصل التاسع عشر: حين يحمل البيت أكثر من هم
١١٢	الفصل العشرون: ما يبقى حين ينفد ما في أيدينا
١١٨	الفصل الحادي والعشرون: حين يضيق المكان وتتسع أبواب السعي
١٣١	الفصل الثاني والعشرون: حين تترك المكان الذي ألفتَه
١٤٤	الفصل الثالث والعشرون: المسؤولية حين يتسع البلاء إلى الناس
١٥٣	الفصل الرابع والعشرون: كيف تكون قريبًا ممن اشتد عليه يومه
١٦٣	الفصل الخامس والعشرون: إعادة البناء بعد المحنة
١٧٢	الفصل السادس والعشرون: أسبوع في بيت يحاول أن يستعيد اتزانه
١٧٩	خاتمة
١٨٠	المصادر والمراجع

مقدمة

تختلف حاجتنا إلى الكلام باختلاف ما نمر به. من فقد قريبًا قد لا يحتمل شرحًا طويلًا، ومن ينتظر نتيجة يخافها قد يكرر السؤال نفسه، ومن أثقله ظلم يحتاج إلى من يعترف بحقه قبل أن يطالبه بالصبر. وحسن الظن بالله يصحب هذه الأحوال، لكنه لا يلغي الفروق بينها، ولا يجعل ألم الناس نسخة واحدة.

قد تعرف الدليل، ثم تحتاج إلى وقت وعون حتى تحسن العمل به. وقد تؤمن بأن الله حكيم، ويبقى في قلبك حزن لا تستطيع اختصاره. وليس المطلوب أن تبدو أمام الناس مطمئنًا في كل لحظة؛ المطلوب أن تعرف ربك، وأن تستعين به على ما أنت فيه، وأن تحفظ قولك وعملك مما حرم، بحسب استطاعتك.

وفي المرض والفقد وضيق الرزق، يبقى للإنسان حق في السؤال وطلب العون والسعي لرفع الضر. ويحتاج إلى أفق الآخرة، يعرف فيه معنى الصبر والأجر، ويعيش يومه راجيًا رحمة ربه.

الفصل الأول

حين يأتي ما لم تستعد له

قال الله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْثَّمَرَاتِ ۖ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]^١

ذكرت الآية صوراً من الابتلاء يعرفها الناس: خوفاً وجوعاً ونقصاً في المال والنفس والثمر. وجاءت البشارة للصابرين. فالابتلاء ليس شيئاً ينفي الإيمان بمجرد وقوعه؛ أخبر الله أنه يبتلي عباده، ويبين لهم الطريق الذي يرجون به الأجر. وقد يفاجئك الحدث رغم معرفتك بهذه الحقيقة، لأن معرفة إمكان المصيبة تختلف عن معايشة ألمها.^٢

في الساعات الأولى قد تعجز عن ترتيب أفكارك. لا تطالب نفسك بامتلاك جواب لكل سؤال في اللحظة نفسها. ابدأ بما لا يحتمل التأخير: سلامة من معك، وما يلزم من مساعدة، وخبر

١ سورة البقرة، الآية ١٥٥.

٢ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير البقرة: ١٥٥.

تتحقق منه، وقرار لا يصح أن تبنيه على إشاعة. وما أمكن تأجيله حتى تتبينه، فأعطه من الوقت ما يحتاجه.

ما تعرفه وما تخشاه

قد يحمل إليك حدث واحد عشرات الصور المحتملة. يقع نقص في رزقك فتخاف انهدام حياتك كلها، أو يظهر عرض صحي فتقفز إلى أسوأ ما تعرف من الأمراض. المخاوف قد تكون مفهومة، لكنها ليست أخباراً محققة عن المستقبل. تبين ما وقع فعلاً، واسأل من يحسن تقويمه، ولا تعامل كل احتمال كما لو أنه قد وقع.

وحين تقول ذلك لنفسك، فلا يلزم أن يزول الخوف كله. الغرض أن تبقى قادراً على تمييز الحقيقة التي تتصرف على أساسها من الصورة التي تحتاج إلى تحقق. تستطيع أن تخاف وأن تثبت، وأن تحزن وأن تطلب العون. ولا تجعل قدرتك على وصف الخوف دليلاً على أن الخطر مؤكد.

الصبر في اليوم القريب

قد تبدو عبارة الصبر كبيرة إذا نظرت بها إلى سنوات لا تعلم ما فيها. قرب النظر إلى ما يلزمك الآن: كلمة تكف عنها لأنك

تعلم ظلمها، أو أمانة تحفظها، أو مساعدة تقبلها، أو دعاء
تقوله بصدق. لا تحتاج أن تعرف كيف ستحتمل كل المستقبل
حتى تؤدي حق هذا اليوم.

والصبر لا يمنع السؤال عن الحقوق والأسباب. قد تحتاج إلى
معالجة خطأ تسبب في ضرر، أو إلى إبلاغ جهة تستطيع
رفعه. افعل ذلك بطريق مشروع، مع الاستعانة بالله، ولا تسمح
لأحد أن يجعل صبرك مرادفًا لإهمال ما يمكنك إصلاحه. ثم إذا
بقي من الأمر ما لا تملكه، فاسأل الله العون عليه، وارْجُ ما
وعد به الصابرين.

أول ما تحتاج إليه بعد الخبر

تأمل مشهدًا افتراضيًا لأسرة وصلها خبر مفاجئ. أحدهم
يسأل عما حدث، وآخر يتصل بكل من يعرف، وثالث يحاول
أن يهدئ الجميع بكلام لا يملك دليله. قد تتسع الفوضى لأن
كل إنسان يريد أن يفعل شيئًا قبل أن يعرف ما يحتاجه
الموقف. يفيد أن يتولى شخص قادر جمع الخبر من مصدره،
وأن يعرف الباقون ما ثبت وما لم يثبت، وأن يقدم ما يحفظ
السلامة والحقوق العاجلة. هذا تنظيم بشري يتغير بحسب
الحال، وليس ترتيبًا تعبديًا مخصوصًا.

في تلك الساعة قد يكون السكوت عن إشاعة فعلاً نافعاً، وقد يكون الاتصال بجهة مناسبة أولى من شرح طويل. لا تحتقر الخدمة القريبة: إيصال حاجة، أو رعاية من بقي في البيت، أو إعفاء صاحب المصيبة من تكرار القصة لكل متصل. من الرحمة أن تنقص العبء بدل أن تجعل حضورك مسؤولية إضافية على المتألم.

وقد يكون صاحب المصيبة غير قادر على اتخاذ بعض القرارات فوراً. لا تستغل ضعفه لحمله على ما تريد، ولا تتصرف في حقوقه دون صلاحية. أعنه على فهم الخيارات بقدر ما تسمح الحال، واستعن بمن يملك خبرة مناسبة. وحيث يوجد خطر عاجل يقدم التصرف الذي يحفظ السلامة عبر جهاته المختصة، فلا تجعل انتظار مواساة أو تمرين شرطاً لطلب العون.

ما يعود بعد هدوء الزحام

كثير من العون يجتمع في اليوم الأول ثم يقل، بينما تبدأ حاجات أخرى حين يعود الناس إلى أعمالهم. قد يحتاج المتألم إلى سؤال قصير بعد مدة، أو إلى مساعدة في أمر لم يستطع ترتيبه، أو إلى أن يعرف أن له من يمكنه التواصل

معه. لا تعد بحضور دائم إن لم تستطع، لكن ما تقدر عليه من متابعة صادقة أرفق من عبارة واسعة تنساها.

ولا تفسر قلة كلامه بأنه قد تجاوز الأمر كله. اسأل عن حاجة محددة واترك له حق عدم الحديث. وربما أراد أن يتكلم في شأن عادي من حياته لا في مصيبتة؛ فدعه يجد عندك مساحة لذلك أيضًا. لا يصير الإنسان اسمًا لا بتلائمه، وله بعده حياة واهتمامات وحقوق لا ينبغي أن تختفي من نظرك.

الفصل الثاني

الدمع الذي لا يناقض الإيمان

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».^٢

في هذا الخبر بكى النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم، وبين أن العين تدمع والقلب يحزن، وأن القول يبقى فيما يرضي الله. فلا يجعل كل بكاء اعتراضاً، ولا كل إخبار عن الحزن ضعفاً في

٣ البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، حديث ١٣٠٣، عن أنس رضي الله عنه.

أصل الإيمان. رحمة القلب حاضرة في الخبر، والرضا بما يرضي الله حاضر في الكلام الذي قيل.

قد يحتاج المكلوم إلى هذا الفرق أكثر من حاجته إلى كلمات كثيرة عن القوة. يسمع أحياناً أن عليه أن يكف دمه حتى يثبت رضاه، فيضيف إلى ألم الفقد خوفاً من أن يكون حزنه ذنباً. الخبر النبوي يبين له أن عليه أن يحفظ قوله وعمله، وأن الدمع في ذاته ليس التهمة التي يتصورها.

أن تسند الحزين

إذا جلست إلى من فقد عزيزاً، فلا تملأ كل سكوت بكلام. ربما أراد أن يذكر خصلة يعرفها فيمن مات، أو أن يسأل عن أمر يحتاج إلى إنجاز، أو أن يبقى قليلاً مع من يثق به. لا تستعجله إلى درس تستخرجه من المصيبة قبل أن يستوعب خبرها، ولا تجعل قدرتك على الكلام دليلاً على أنك أقدر منه على الصبر.

٤ ابن حجر، فتح الباري، باب قول النبي ﷺ إنا بك لمحزونون، شرح حديث ١٣٠٣. القين: الحداد، والظئر هنا زوج المرضعة.

يمكنك أن تدعو له ولمن فقد، وأن تعينه في حاجة ظاهرة،
وأن تحفظ خصوصيته. وإذا ذكر حزنه، فاسمعه من غير
محاكمة متعجلة. لا يتطلب صدق التعزية قصة عن مآل غيبي،
ولا شهادة لا تملكها، ولا وعدًا بأن الألم سيختفي في مدة
تحددها أنت.

بقاء المحبة مع استئناف الحياة

قد يشعر بعض الناس أن عودته إلى عمله أو ابتسامته بعد
مدة خيانة لمن فقدته. وليس في الخبر ما يجعل دوام الانقطاع
عن الحياة مقياسًا للمحبة. للإنسان واجبات وحاجات، وله أن
يفرح بخير جديد مع بقاء محبته لمن رحل. لا يحتاج أن
يمحو الذكرى كي يؤدي ما عليه اليوم.

ويختلف الناس في طريقة التعبير عن الحزن؛ فلا تحكم على
صدق المحبة بكثرة الدموع، ولا على مقدار الرضا بقلّة الكلام.
تعامل مع الشخص بما تعرفه من حاجته، لا بمقياس شعوري
تفرضه عليه. وحين يعسر عليه تدبير يومه أو يشتد ضيقه،
فالعون المناسب رحمة به، ولا تعارض بينه وبين رجائه بالله.

ما نقوله في التعزية

في مجلس التعزية يستطيع المرء أن يدعو للميت ولأهله، وأن يذكر ما ثبت من الصبر والرجاء بقدر ما يناسب السامع. لا يحتاج إلى تفسير خاص للوفاة أو إلى وصف مشهد غيبي لم يرد به خبر. وقد يكون أنفع كلامه أن يبين خدمة يستطيعها، ثم يفي بها دون انتظار ثناء. اللسان الرحيم يزن حاجة المتألم قبل رغبته هو في إلقاء موعظة كاملة.

لا تجعل كل عبارة حزن موضوعاً لتصحيح علني. قد يقول المكلوم إنه مشتاق أو إنه لا يعرف كيف سينظم غده. افهم قصده، وبيّن ما يحتاج إلى بيان برفق، ولا تبحث في كلامه عن أسوأ احتمال. وإذا سمع منه قول باطل صريح، يعان على الرجوع عنه بعلم وحكمة، من غير أن يصبح مجلسه محكمة تستعرض ضعفه.

والذكر الحسن للميت يكون بالصدق. تستطيع أن تذكر معروفاً علمته، وأن تدعو له بالمغفرة، من غير مبالغة في تزكيته أو شهادة بمآل لا تعلمه. محبته لا تحتاج إلى قصة مخترعة، وكرامته لا تزيد بنقل رؤيا مجهولة على أنها حقيقة مؤكدة. احفظ للخبر قدره، وللدعاء بابه، وللغيب حرمة.

واجبات لا يسقطها الحزن

قد توجد حقوق مالية وأمانات وشؤون تحتاج إلى ترتيب بعد الوفاة. لا يحمل أهل المصيبة على حسم كل شيء في لحظة، لكن لا يجعل الألم حجة لإضاعة ما يلزم حفظه. يستعان بأهل العلم والاختصاص فيما يتعلق بالتركة والوصايا والديون والحقوق؛ ولا يتصرف أحد في حقوق بقية المستحقين لأنه يرى نفسه أقدر على معرفة ما كان سيحبه الميت.

وإذا اجتمعت الأسرة فلا تختزل اختلافها في قلة وفاء بعض أفرادها. ربما كان أحدهم يتكلم في واجب عملي لأنه يحاول حفظه، وربما احتاج آخر إلى تأجيل ما يحتمل التأجيل. انظروا في حقيقة الحاجة وموعدها، واقسموا المسؤولية بإنصاف. يحفظ الأدب مع الحزن، ويحفظ الحق كذلك؛ لا يلزم أن يضيع أحدهما كي يبقى الآخر.

الفصل الثالث

دعاء المصيبة ووعد الخلف

قالت أم سلمة رضي الله عنها:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرا منه رسول الله ﷺ

جمع الدعاء الاسترجاع، وسؤال الأجر، وسؤال الخلف الخير. وأخبرت أم سلمة بما وقع لها بعد وفاة أبي سلمة من زواجها برسول الله ﷺ. نتلقى الخبر بلفظه، ونؤمن بما تضمنه من الوعد، ونتعلم سؤال الله الخير حين يعجز نظرنا عن تصور ما يكون بعد الفقد.^٦

٥ مسلم، الصحيح، كتاب الجنائز، حديث ٩١٨، عن أم سلمة رضي الله عنها.

٦ مسلم، الصحيح، حديث ٩١٨؛ والنووي، المنهاج، باب ما يقال عند المصيبة.

ولا ينبغي أن يسلب الحرص على عدم الجزم بالغيب قوة الوعد الوارد في النص. فقد أخبر الحديث بالأجر والخلف، فنصدقه. الذي لا نملكه هو تعيين تفاصيل الخلف لشخص بعينه ووقته وصورته، أو إلزامه بأن يتحقق على مثال ما وقع لأمر سلمة. ثبت ما قاله الرسول ﷺ، ونتوقف عما لم يقله.

حين يصعب أن تتخيل خيرًا آخر

قد يتعلق قلبك بمن فقدت تعلقًا لا ترى معه كيف تستمر حياتك. ولا يلزم أن تستطيع رسم صورة المستقبل قبل أن تدعو بهذا الدعاء. يكفي أن تسأل ربك الذي يعلم ما لا تعلم، وأن ترجو فضله كما أخبر. فضعف قدرتك على التخيل لا يحد ما عند الله، ولا يجعل دعاءك بلا معنى.

والخير الذي تسأله لا يوجب عليك أن تقارن الناس مقارنة جافة. لست مطالبًا أن تنتقص من محبة الراحل كي تصدق الوعد. تدعو الله أن يأجرك ويخلف لك خيرًا، وتترك له العلم بما يكون، وتؤدي ما بقي عليك من حق. وقد تظل المحبة والذكرى، ويأتي في حياتك خير تعرفه وتحمد الله عليه؛ ولا يحتاج أحدهما إلى محو الآخر.

الأجر لا يبيح ترك الممكن

إذا كان مع المصيبة شأن يحتاج إلى عمل، فالدعاء لا يعطله. قد توجد وصية أو أمانة أو مسؤولية تجاه من بقي. استعن بمن يبين لك ما يلزم، ولا تحاول حمل كل شيء وحدك إذا وجدت عونًا أمينًا. وقد لا تستطيع إنجاز الأمور كلها دفعة واحدة؛ قدم الضروري، ورتب ما سواه بحسب القدرة والحاجة.

وحين يعود الحزن، لا تتعامل معه كأنه يمحو كل ما فعلته من صبر. قد تتجدد الذكرى مع مكان أو وقت أو خبر، فيحتاج القلب إلى دعاء وعون جديدين. لا تجعل حياتك محاكمة مستمرة لمقدار تأثرك؛ انظر إلى ما تختاره من قول وعمل، واسأل الله أن يعينك على الباقي.

الدعاء الذي لا يحتاج إلى إلغاء الذكرى

قد يصعب على المكلوم لفظ الخلف لأنه يسمعه كأنه طلب استبدال لمن أحب. والخبر لا يطلب منه أن يمحو ذكرى أبي سلمة أو ينتقص فضله. تسأل أم سلمة ربهما ما علمها نبيه ﷺ، ويبقى في قلبها ما تعرفه من المحبة. يستطيع القارئ أن

يسأل الخير من غير أن يحدد كيف سيأتي، ومن غير أن يحول الدعاء إلى مقارنة مؤذية بين من مضى ومن بقي. ومن يواسيه لا ينبغي أن يضغط عليه ليصف الآن خيرًا لم يظهر له. يقول له من الوعد ما ثبت، ويدعه يدعو بقدر ما يفهم ويطبق. قد يحتاج إلى شرح اللفظ مرة، وقد يحتاج بعد ذلك إلى حضور صامت. لا يطالب بإعادة الدعاء أمام الآخرين حتى يطمئنوا إلى صبره، ولا يجعل تذكره للحزن دليلًا على أنه لم ينتفع بالمعنى.

حين يفتح باب جديد

قد يأتي خير جديد فيشعر الإنسان بحرج من الفرح. يظن أن ابتسامته تنقص وفاءه، أو أن سعيه إلى حياة أهدأ إعلان نسيان. من رحمة الله أن تتسع حياة العبد للمحبة الماضية والواجب الحاضر، وأن لا تكون حاجته إلى الفرح دليل جفاء. يلتزم الأحكام التي تخص حاله، ويسأل عما أشكل عليه، ولا يخترع لنفسه حرمانًا دائمًا ليبرهن للناس أنه لم ينس. وقد يستعجل المحيطون فتح هذا الباب قبل أن يكون مناسبًا. يعرضون حلاً لم يطلبه، أو يقارنون حزنه بحزن غيره، أو يحددون موعدًا يجب أن يعود فيه كما كان. لا تصنع سيرة أم

سلمة جدولاً نفسياً لكل قارئ. تتلقى الوعد على وجهه، وتترك
لاختلاف الناس والوقائع مكانه، وتعين كل شخص فيما يعرف
من حاجة.

الفصل الرابع

مع المرض وما لا يراه الناس

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ

«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^٧

ذكر الحديث التعب والمرض والهم والحزن والأذى والغم، حتى الشوكة، وأخبر بتكفير الخطايا. فيطمئن المؤمن إلى أن ما يصيبه ليس خارج علم الله، وأن لهذا الألم وجهًا من الفضل أخبر به الوحي. وليس لازم ذلك أن يحب المرض أو أن يمتنع من طلب الشفاء؛ التكفير خبر يرجوه، وطلب العافية حاجة يسألها.^٨

قد يرى من حول المريض ما يظهر من حاله فقط. يروونه قادرًا على الكلام فيظنون أن التعب يسير، أو يروونه يضحك

٧ البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، حديثا ٥٦٤١-٥٦٤٢، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

٨ النصب: التعب، والوصب: المرض؛ البخاري، الصحيح، حديثا ٥٦٤١-٥٦٤٢.

فيحسبون أن الألم قد انتهى. لا تجعل قلة فهمهم حكمًا على حقيقة ما تحمله، ولا تجعل يومًا جيدًا يلزمك بقدرة لا تجدها في كل يوم. صف حاجتك بوضوح لمن يمكنه إعانتك، واستعن بأهل الاختصاص في شأن العلاج.

لا تجعل المرض اتهامًا

لا يخبرنا الحديث أن كل مرض عقوبة خاصة على ذنب بعينه نعرفه، ولا يجيز للناس أن يتهموا المريض في دينه. الإخبار بتكفير الخطايا فضل ورحمة، وليس إذنا بفتح سجل تخمينات عن سريره. وقد يكون كلام المتعجل أشد عليه من بعض ألمه؛ فليكن التذكير رحيماً، مستنداً إلى ما ثبت، بعيداً عن الجزم بما خفي.

وفي المقابل، لا تصنع للمريض مرتبة غيبية تقطع بها. ترج له الخير، وتذكره بالنصوص الصحيحة، وتعينه على ما يطيق من عبادة، وتدعه يسأل عما يشكل عليه. الحكم بقبول عمل معين أو بتمام مآل معين لا يملكه من يريد المواساة لمجرد أنه يريد الخير.

رجاء يصحب العلاج

من حسن العناية بالنفس أن تسعى إلى العلاج المناسب وتوضح للطبيب ما تحتاج إلى توضيحه. لا يحمل هذا الكتاب وصفة طبية أو تشخيصًا لحالتك، ولا يجعل تمرينًا أو عبارة بديلًا عن رعاية تحتاجها. الدعاء والذكر والاستعانة بالله يصحبها طلب العون النافع، ولا يتعارضان مع الاعتراف بأنك متعب.

وحين يطول المرض، قد تضيق المسافة التي تستطيع أن تعمل فيها. انظر إلى ما بقي من قدرتك دون أن تقارن نفسك كل يوم بصورتك القديمة. قد يكون المتاح سؤالًا عن حكم عبادتك في حالك، أو تواصلًا مع من يعينك، أو راحة تحتاج إليها. لا تُنشئ لنفسك واجبًا لم يوجبه الله لتثبت أنك لم تضعف.

الحق في سؤال يفهمه المريض

قد يخرج المريض من لقاء طبي وهو لا يعرف ما الذي فهمه على وجه التحديد. يساعده مرافق أمين، بإذنه، في ترتيب الأسئلة التي يحتاج أن يوجهها إلى المختص: ما المعلومة المؤكدة، وما الذي ينتظر فحصًا، وما الخطوة التالية، وكيف

يتواصل عند الحاجة؟ هذه أسئلة لتنظيم الفهم، لا تعليمات طبية يقدمها الكتاب. وضوح السؤال يعين على الاستفادة ممن يملك العلم المناسب.

ولا تتداول تفاصيل مرضه لمجرد أن الناس مهتمون. ربما رضي بإخبار قريب ولم يرض بنشر ذلك في مجموعة كبيرة. احفظ ما أئتمنك عليه، واطلب إذنه في مشاركة ما لا ضرورة تستدعيه، ومميز بين إيصال المعلومة لمن يعالجه وبين إشباع فضول من يسأل. حاجة الإنسان إلى المساعدة لا تسقط حقه في الخصوصية.

القدرة التي تتغير من يوم إلى آخر

في بعض الأحوال تختلف قدرة الإنسان على أداء أعماله بين يوم وآخر. لا يصح أن نجعل قيامه بعمل مرة حجة على قدرته الدائمة عليه، ولا أن نفترض عجزه عن كل شيء لأن بعضه تعذر. يسأل عما يستطيع وما يحتاج إليه، ويرجع فيما يتعلق بالقدرة الطبية إلى أهلها. وفي العبادة يتعلم الحكم الذي يناسب حاله، بدل أن يتركها بالكلية أو يشق على نفسه بصورة لم يلزم بها.

ومن حسن صفة المريض أن يبقى صاحب رأي حيث يستطيع. لا تحول العناية إلى سيطرة تمحو اختياره في كل شأن. اعرض العون، وافهم ما يريده، وراع ما تقضي به السلامة والأحكام والاختصاص. الرعاية أمانة تحتاج إلى رحمة وعلم، ولا يكفي أن يقول صاحبها إنه يريد الخير إذا كانت طريقته تزيد عجز الآخر وحرجه.

الفصل الخامس

حين يضيق الرزق

للضيق المالي أثر يتجاوز الأرقام. قد يخجل المرء من الاعتذار عن أمر اعتاده، أو يخاف أن تتغير صورته عند أسرته، أو يحمل نفسه مسؤولية كل ما لم يستطع توفيره. وربما كان أشد ما يؤلمه أنه لا يستطيع أن يشرح مقدار سعيه لمن يرى النتيجة فقط.

الصدق في هذه الحال يبدأ بمعرفة الممكن. ما النفقة الضرورية؟ وما الالتزام الذي يلزم السؤال عنه أو ترتيبه؟ وما السبب المباح الذي تقدر على بذله؟ لا يغير حسن الظن بالله حقيقة الحسابات، لكنه يمنع أن تتحول الحسابات وحدها إلى حكم بالهلاك، ويعينك على أن تبحث وتتعلم وتسأل دون قنوط.

كرامة يحفظها الحلال

قد تعرض عليك منفعة من طريق تعلم حرمة، ويقال لك إن الضرورة تبرر كل شيء. لا تصدر حكمًا عامًا لنفسك تحت ضغط الخوف؛ مسائل الضرورة والحقوق تختلف وتحتاج إلى

سؤال أهل العلم بحسب واقعها. ما تعلم تحريمه تجتنبه، وما أشكل تستفتي فيه بصدق، ولا تخفِ عن المفتي ما يؤثر في الجواب طلباً لرخصة تتمنى سماعها.

وفي طلب العمل، لا تجعل رفضاً واحداً تعريفاً نهائياً لقدرتك. تعلم مما تستطيع معرفته: هل يحتاج عرضك إلى وضوح، أو مهارتك إلى تطوير، أو بحثك إلى توسيع؟ ثم اترك ما لا تعلمه من نيات الناس وعواقب البدائل. ليست كل فرصة فائدة شراً محققاً صُرف عنك، كما أنها ليست الدليل الأخير على أن الخير قد انقطع.

كيف نعين من ضاق عليه رزقه

قد تكون النصيحة النافعة أقل مما يقال عادة وأكثر اتصالاً بالحاجة: إحالة إلى فرصة معلومة، أو عون مباح، أو استماع أمين قبل اقتراح الحل. لا تطلب من المحتاج أن يعرض تفاصيله أمام الناس حتى يستحق المواساة، ولا تجعل الإعانة وسيلة للمن عليه أو التحكم فيه.

وإذا لم تستطع المساعدة، فلا تعوض عجزك بوعد لا تملكه. تستطيع أن تدعو له وتصدق في حدودك، وأن تجتنب لومه بناء على ظاهر حاله. فكم من إنسان بذل جهداً لا تعرفه، وكم

من قيد لا يظهر في نصيحة سريعة. الرفق يفتح باب التعاون، أما الاتهام فلا يخلق رزقًا ولا يزيد علمًا.

حين يحتاج البيت إلى كلام واضح

في مثال افتراضي، نقص دخل أسرة وبقيت التزاماتها على صورتها القديمة. خشي المسؤول عن الإنفاق أن يصرح بالضيق، فأخذ يعد بما لا يعلم قدرته عليه. ثم صارت الوعود مصدر خوف جديد. قد تكون البداية الأصدق جلسة هادئة تبين المتاح والحاجات الضرورية وما يحتاج إلى سؤال، دون نشر أسرار مالية لا يحتاج إليها كل فرد. الوضوح يسمح بتعاون واقعي، أما الإخفاء المطلق فقد يجعل الأسرة تبني على صورة لم تعد موجودة.

لا يعني ذلك إلقاء الخوف كله على الأطفال أو تحميلهم مسؤولية ليست لهم. يراعى العمر والحاجة وطريقة البيان، ويطلب العون التربوي المناسب حين يلزم. يمكن أن يعرف أهل البيت أن بعض العادات ستتغير، وأن الحب والكرامة لا يتوقفان على مستوى الإنفاق. وتجتنب المقارنات المهينة بمن يملكون أكثر أو أقل؛ فالغرض ترتيب الحياة، لا عقد محكمة للرزق.

طلب المعونة بصدق

قد يحتاج صاحب الضيق إلى بيان حاله لجهة مساعدة أو لصاحب حق. يذكر ما يلزم بوضوح، ويميز المال الذي في يده من المتوقع، ولا يعد بوفاء لا يملك له أساسًا. إذا كانت المسألة تتعلق بدين أو عقد أو نزاع فحكمها التفصيلي يحتاج إلى أهل العلم والاختصاص، ولا يكفي أن يشبه ظاهرها مثلاً قرأه في كتاب.

ومن يسمع الطلب لا يملك أن يعرف كل سعي صاحبه من ورقة أو مكالمة. يتحقق بما يلزم لأداء الأمانة، ويحفظ الخصوصية، ويبين ما يستطيع وما لا يستطيع. ربما كان توجيه صحيح إلى باب معلوم أنفع من موعظة طويلة عن القناعة. والرزق الذي وسعه الله عليك ليس دليلاً أنك أقدر على تفسير ضيق غيرك؛ قد تكون مسؤوليتك الأقرب أن ترحمه وتعيّنه بما تعلم.

الفصل السادس

الشكوى إلى الله

قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام:

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٨٦]^٩

هذا قول نبي يحزن ويشكو إلى ربه، ويعلم من الله ما لا يعلمه أبناؤه. لا يُنقل ما خُص به من العلم إلى كل أحد، لكن الخبر يبين أن إظهار الحزن لله لا يناقض الرجاء به. تستطيع أن تقول ما يؤلمك وتسأله عونه، دون أن تتكلف في الدعاء صورة تخالف حقيقة حالك.

ثم قال تعالى:

{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئُسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]^{١٠}

٩ سورة يوسف، الآية ٨٦.

١٠ سورة يوسف، الآية ٨٧.

في السياق نفسه أمر بالبحث والاجتهاد، ونهى عن اليأس من روح الله، أي فرجه ورحمته. اجتمع الرجاء بالسعي. ولم تصبح الشكوى إلى الله عذرًا لترك ما يمكن بذله، كما لم يصبح بذل السبب استغناء عن الرجاء."

الفقد لا يمنحنا علمًا خاصًا

قد يتأثر قارئ بالقصة فيظن أن يقينه سيمنحه العلم بعودة شخص أو بانتهاء خصومة على الصورة التي يختارها. هذا انتقال لا يدل عليه الخبر. يعقوب نبي، وقد حكى الوحي قوله وما انتهت إليه القصة. أما نحن فنؤمن بخبر الله، ونرجو فرجه، ونبذل الأسباب المشروعة، ولا ندعي أن إحساسًا قويًا قد صار وحيًا بمآل معين.

ولا يُستعمل ختام الآية للحكم بالكفر على من أنهكه حزن أو خاف من مستقبل. أحكام الاعتقاد والأشخاص لا تُبنى على كلمة محتملة مع إغفال معناها وحال صاحبها، ولا يحسن بالواعظ أن يطلقها على المتألمين بلا علم. ينبّه إلى خطر

اليأس من رحمة الله، ويفتح طريق الرجوع، ويترك الأحكام التي تحتاج أهلها إلى أهلها.

حديث تحتاج فيه إلى إنسان

الشكوى إلى الله لا تمنع أن تخبر إنساناً بما يحتاج إلى معرفته ليعينك. تخبر الطبيب بمرضك، وصاحب الخبرة بما أشكل عليك، ومن تطلب منه رفع الظلم بوجه مظلمتك. هذه أخبار لغرض نافع، وليست في نفسها اعتراضاً على الله. لا تُلزم نفسك بصمت يمنع العون الذي تحتاجه باسم الصبر.

واختر لمن تبوح له قدرًا مناسبًا من الخبر. لا يلزم أن تنشر كل ما جرى، ولا أن تجعل معاناتك مادة للتداول. حافظ على حقوق من يدخل في القصة، واطلب عونًا يوجهك إلى خير يمكن فعله. وقد تكون كلمة صادقة مع شخص أمين بداية ترتيب ما عجزت عن ترتيبه وحدك.

الشكوى التي تطلب عونًا

تختلف الشكوى باختلاف غرضها وطريقتها. قد يخبر الإنسان طبيبًا بألمه، أو عالمًا بإشكاله، أو جهة مختصة بظلم وقع عليه، أو صديقًا أمينًا بحاجته إلى عون. ليس في مجرد هذا الإخبار

اعتراض على الله. وقد تتحول الشكوى إلى قول باطل أو نشر أسرار لا حاجة إليها أو ظلم لآخرين، فيحتاج ذلك إلى ضبط. لا نعالج الفرق بمنع الكلام كله، ولا بإباحة كل كلام لمجرد أن صاحبه متألم.

اختر من يحتاج إلى معرفة قصتك لأجل نفع يرجى، واذكر من تفاصيلها قدر الحاجة. إذا كان لا يملك مساعدتك أو لا يحفظ سرّك، فقد يزيد الحديث إليه تعبًا. وفي المقابل لا تحبس نفسك في عزلة تمنع وصولك إلى من يستطيع العون. قد تحتاج إلى أكثر من جهة بحسب نوع الحاجة؛ علم شرعي أو خبرة مهنية أو حماية أو رعاية.

أن تسمع دون أن تصنع تفسيرًا

إذا ائتمنتك أحد على شكواه، تستطيع أن تقول إنك فهمت من كلامه كذا وأن تسأله عما يحتاجه الآن. ليس لازمًا أن تعرف الجواب الكامل أو أن ترد كل تفصيل إلى حكمة غيبية. الاعتراف بحدودك أدب؛ تدله على من يحسن ما لا تحسنه، وتبقى وفيًا فيما قدرت عليه.

ولا تتخذ شكواه حكاية تنقلها لتثبت أنك قريب منه أو خبير بأحوال الناس. ائتمان المتألم يضيف إلى مسؤوليتك ولا

يعطيك مادة للحديث. إن احتجت إلى استشارة لأجل مساعدته، فاحفظ ما يمكن إخفاؤه من هويته، واطلب الإذن حيث يلزم. الرحمة التي لا تحفظ السر قد تؤذيه بعد أن اطمأن إليك، والنية الحسنة لا تعفي من إصلاح أثر هذا الأذى.

الفصل السابع

حين تتأذى من الناس

قد يختلط في العلاقات الألم والحق والخوف من المستقبل. تريد أن يصلح الأمر، وتخشى عودة الأذى، وربما سمعت من يطلب منك العفو قبل أن يتبين ما وقع. وحسن الظن بالله لا يوجب أن تمنح كل إنسان ثقة مطلقة، ولا أن تعرّض نفسك لضرر متكرر لتثبت صفاء قلبك.

تتعامل مع الوقائع بما يظهر من بيناتها، وتطلب المشورة في الحقوق التي تحتاج إلى حكم. فإذا كان في العلاقة خطر حاضر، فالأولوية لطلب الحماية المناسبة. وإذا كان الخلاف يحتمل إصلاحاً آمناً، فابحث عن طريقه مع من يحسن الوساطة. ليست كل علاقة قابلة للعودة بالصورة القديمة، ولا كل عفو مساوياً لترك الحدود التي تحفظ الحقوق.

عدل في رواية ما حدث

قد تحملك شدة الألم على تعميم يتجاوز ما تعلم: كل ما فعله كان كذباً، ولن يأتي منه خير أبداً. ربما ثبتت أفعال تحتاج إلى مواجهة، لكن الحكم على كل ماضٍ ومستقبل أمر آخر. سمّ ما

تعرفه بقدره، ولا تضيف إليه ما لا تملك عليه بينة. في هذا حفظ لحقك من أن يضعف بسبب مبالغة، وحفظ لحق غيرك من ظلم قد يصدر في طلب رفع الظلم.

ولا يعني الإنصاف أن تنكر الأذى أو تعتذر عن المعتدي بغير علم. تقول ما وقع بصدق، وتفرق بين تفسير محتمل وحقيقة ثابتة، وتطلب ما يحفظ حقك. وإذا عجز الناس عن إنصافك كاملاً، فعُدل الله باقٍ، لكن الإيمان به لا يمنع السعي المشروع في الإنصاف الممكن.

ما يبقى لك أن تفعله

قد لا تستطيع تغيير رأي الآخر فيك، أو حملة على الاعتذار، أو إعادة الماضي كما كان. لكن يمكنك أن تختار ما تقوله، وما تشارك به غيرك، وما تطلبه من عون، وما تتخذه من احتياطات مشروع. هذه المساحة ليست كل ما تتمناه، لكنها مساحة حقيقية تستحق أن تحفظ فيها نفسك من ظلم جديد.

واسأل الله أن يصلح قلبك، ولا تطالب نفسك بنسيان فوري. قد يبقى أثر الجرح مدة، ولا تصبح كل ذكرى اعتداء منك. الذي تعالجه هو ما تختاره من تصرف حين تحضر الذكرى، وما تستطيع أن تتعلمه أو تطلب العون فيه. رجاؤك بالله

يصحب هذا العمل المتدرج، ولا يشترط أن تبدو قد تجاوزت كل شيء.

النصرة التي تمنع استمرار الظلم

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً قال «تأخذ فوق يديه».^{١٢}

يبين الجواب أن نصرة من وقع في الظلم لا تكون بإطلاق يده فيه. قد تكون قريباً منه أو محباً له، ثم يكون إحسانك إليه أن تمنعه من تجاوز تعرفه، وأن تعينه على رد الحق وإصلاح ما أفسد. ولا يعني ذلك أنك تملك عقوبته بغير حق أو تتجاوز في منعه؛ لكل موقف حكمه والوسيلة المشروعة التي تناسبه.

وفي الأسرة أو العمل، قد يطلب منك أحد الأطراف أن تثبت محبتك بتصديق كل ما يقول. تستطيع أن تحفظ المحبة ولا تشهد بما لا تعلم. وأن تسمع شكواه دون أن تنشر اتهامه خبراً ثابتاً. وإذا علمت خطأ واضحاً فلا تعنه على استمراره تحت

١٢ البخاري، الصحيح، كتاب المظالم، حديث ٢٤٤٤، عن أنس رضي الله عنه.

اسم الوفاء. من الرحمة به أن يلقي من يرده عن الأذى قبل أن تتسع تبعته عليه وعلى غيره.

وقد يكون المتضرر هو الذي يحتاج إلى نصرتك. لا تجعل الحديث عن إصلاح المعتدي يشغلك عن وقف الضرر الممكن أو إيصال المظلوم إلى من يعينه. وليست كل خصومة مجالاً لوساطة عفوية؛ قد يوجد خطر أو تفاوت شديد في القدرة أو حق يحتاج إلى جهة مختصة. الرفق لا يسوغ ترك المتضرر وحده، كما أن الغضب له لا يسوغ نشر ما لم يتحقق.

تبدأ النصرة أحياناً بأمر محدود: أن ترفض نقل كلام جارح، أو أن تصحح شهادة أخطأت فيها، أو أن تبين أنك لا تعلم ما طلب منك تأكيده. هذه مواقف قد تكلفك بعض الرضا عند الناس، لكنها تحفظ للصدق مكانه. وأنت تحسن الظن بالله لا تحتاج إلى وعد بأن جميع الأطراف ستمدحك؛ يكفي أن تجتهد في العدل، وتسأل البيان فيما أشكل، وتصلح خطأك إذا تبين.

العفو والصلح والثقة أمور متميزة

قد تختلط هذه المعاني فيقال للمتضرر: إن عفوت فارجع كما كنت، وإن طلبت حماية فأنت لم تسامح. وليس هذا لازماً في

كل حال. العفو عن حق على وجهه، والصلح على شروط، وإعادة الثقة في التعامل، قرارات تختلف بحسب نوع الحق وما ظهر من أسباب الأمان. تفصيل أحكامها يسأل عنه أهل العلم، وتقدير الخطر يستعان فيه بأهله؛ ولا تختصر جميعها في شعور مطلوب من المظلوم.

يمكن أن يصلح المعتدي بعض ما أفسد ويبقى محتاجًا إلى زمن يظهر فيه صدق التغير، ويمكن أن يختار المتضرر حدودًا مباحة تمنع تكرار الأذى. ليس له أن يظلم، وليس لغيره أن يفرض عليه ثقة عمياء باسم صفاء القلب. حسن الظن بالله يختلف عن الحكم على أفعال الناس؛ نرجو الله وننظر في الوقائع بما عندنا من علم.

الإنصاف لمن لا نحب

حين تروي ما جرى، فرق بين ما شاهدته وما استنتجتته. قد تقول إنه لم يف بوعده معلوم، ولا تستطيع أن تقول إن كل حياته خداع. وقد يثبت لك حق ولا يثبت لك جميع ما تطلبه من عقوبة أو تشهير. العدل يحفظ الحق من الزيادة، ولا ينتقص من الألم الذي عشته.

ومن يساعدك ينبغي أن يسمع قبل أن يدفعك إلى مواجهة أو تنازل. ربما كان في المواجهة خطر لا يعرفه، وربما كان في الصمت إضاعة لحق عاجل. لا تحمل قراراتك على حماسة شخص لم يفهم الواقعة. اجمع ما يلزم، واستعن بالجهة المناسبة، واسأل الله أن يقيك الظلم وأن يعينك على طلب حقك دون تجاوز.

الفصل الثامن

إذا فُتح الباب بعد طول انتظار

قد يتحقق ما كنت ترجوه، فتفرح وتتنفس بعد تعب. في هذه الساعة تحتاج إلى حسن الظن بالله كما احتجت إليه في الشدة؛ تشكره على ما علمت من إحسانه، وتسأله البركة وحسن استعمال ما أعطيت، ولا تجعل الفرج بداية غفلة عما كنت تعرفه من حاجتك إليه.

واحذر أن تصير قصتك بعد الفرج قاعدة تفرضها على غيرك. قد يكون في تجربتك ما ينفعه، لكن اختلاف الأحوال يمنع أن تعده بالنتيجة نفسها لمجرد أنه سيفعل بعض ما فعلت. انقل ما وقع لك بصدق، وميز بين السبب الظاهر الذي تعرفه وبين الحكمة الغيبية التي لا تعلمها، وادعُ له بالخير دون أن تملي على الله صورته.

الفرح الذي يحفظ الحقوق

إذا اتسع رزقك، فتذكر من لزمك حقه في الضيق. وإذا عاد إليك بعض ما فقدت، فلا تجعل الفرح عذرًا لتجاوز حد أو إهمال واجب. وقد يحتاج نجاحك الجديد إلى تعلم جديد؛ فلا

يمنعك الاعتراف بفضل الله من إصلاح طريقة الإدارة أو الاستشارة أو مراعاة من تأثر بتغير حالك.

ولا تحتقر زمن الضعف بعد أن تزول بعض أسبابه. من حولك أناس لم يصلوا بعد إلى ما وصلت إليه، وقد يحتاجون إلى أن تبقى رحيماً لا إلى أن تفسر معاناتهم بالكسل. اشكر الخير الذي أعطيت، وأعِن بما تقدر عليه، واحفظ حدود علمك بمن لم تُفتح له الأبواب التي فُتحت لك.

ماذا تحمل معك من أيام الضيق

قد يكون من شكر الفرج أن تحفظ علماً تعلمته في الشدة. عرفت قيمة من سأل عنك، أو أدركت صعوبة إجراء كان يبدو لك سهلاً، أو رأيت كيف تؤذي النصيحة المتعجلة. تستطيع أن تجعل هذه المعرفة أرفق بتعاملك مع الآخرين، من غير أن تجعل أملك مصدر تفوق أخلاقي عليهم. الابتلاء لا يمنح الإنسان العصمة، والنجاة منه لا تجعله عالماً بكل ابتلاء.

ولا يلزمك أن تعيد حكاية الشدة للناس حتى تثبت شكرك. بعض التجارب يحسن حفظ خصوصيتها، وبعض ما ينفع منها يمكن نقله بلا أسماء أو تفاصيل. إذا شاركت، فميز بين ما وقع وبين ما تستنتجه، ولا تنسب إلى الله سبباً خاصاً لم يخبرك

به. الخبر الصادق قد يكون أقل إثارة من قصة موعظة مصنوعة، لكنه أحق بثقة السامع.

نعمة تحتاج إلى مهارة جديدة

قد تأتي سعة رزق أو مسؤولية أو علاقة جديدة فتحتاج إلى تعلم لم تحتجه قبلها. الشكر لا يغني عن إدارة أمينة ولا عن سؤال أهل الخبرة. ربما أخطأت في استعمال النعمة لأنك ظننت أن حصولها دليل كاف على قدرتك على كل ما بعدها. تواضع للتعلم، واعترف بما لا تعرف، واحفظ حقوق من يشترك معك في أثرها.

ومن حولك لا يلزم أن يفرحوا بالطريقة نفسها أو في اللحظة نفسها، خاصة إن كانوا لا يزالون في ضيق يشبه ما خرجت منه. افرح بخيرك دون مقارنة جارحة، وراع خصوصية من يخبرك بألمه. تستطيع أن تحمد الله بصوت صادق لا يحتاج إلى أن يجعل حياة الآخرين أقل شأنًا، وأن تنفعهم بما تستطيع بدل أن تجعل نجاحك حجة عليهم.

الفصل التاسع

حين تنظر إلى ما في أيدي الآخرين

قد يكون يومك محتملاً، ثم ترى خبراً عن رزق غيرك فيثقل عليك ما كنت راضياً به قبل دقائق. لم ينقص ما في يدك، لكن المقارنة غيرت طريقة رؤيتك له. وقد يكون أصل حاجتك حقيقياً: بيت تحتاج إليه، أو عمل تبحث عنه، أو زواج ترجوه. المشكلة تبدأ حين يصير حصول الآخر على حاجته دليلاً في ذهنك على أنك منسي أو محروم من الخير كله.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝۱۳﴾

ترد الآية القلب إلى سؤال الله من فضله. يبين السعدي الفرق بين التطلع الحاسد إلى ما عند الغير وبين السعي الممكن وسؤال الله، ويميز ابن كثير في هذا الموضع بين تمنى مثل

النعمة وتمني عينها وزوالها عن صاحبها. فلا يلزم من سلامة القلب أن تتخلى عن طلب خير مباح، وإنما تصلح جهة طلبك وصلتك بما أعطي غيرك.^{١٤}

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»^{١٥}

يشرح النووي معنى ازدراء النعمة بتحقيرها، وينقل عن ابن جرير وغيره أن التطلع إلى من فضل في أمور الدنيا قد يحمل النفس على استصغار ما عندها، وأن النظر إلى من هو دونها في تلك الأمور يعين على الشكر والتواضع وفعل الخير. لا يتناول ذلك الحكم على قيمة الأشخاص عند الله، ولا يبيح أن تجعل ابتلاء غيرك مادة تتعالى بها عليه.^{١٦}

١٤ السعدي، تيسير الكريم الرحمن؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير النساء: ٣٢.

١٥ مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، حديث ٢٩٦٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي تعقيب رواية أبي معاوية: «عليكم».

١٦ النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، شرح حديث ٢٩٦٣؛ نقل فيه التعليق عن ابن جرير وغيره.

الحاجة باقية والقراءة تتغير

قد تحتاج إلى عمل أفضل فعلاً، ولا يصح أن يقال لك إن شكر الموجود يمنعك من البحث. تستطيع أن تحمد الله على رزقك، وأن تسعى إلى زيادة مباحة، وأن تعترض على ظلم واقع في حقل بالطريق المشروع. الشكر لا يطلب منك تسمية الظلم عدلاً، ولا تسمية الضيق سعة. إنه يحفظ لما تعرفه من النعمة مكانها، فلا تمحوها الحاجة إلى نعمة أخرى.

ومن المفيد أن تميز مقدار الحاجة عن مقدار المقارنة. ربما كنت تحتاج إلى مسكن مناسب، ثم تحولت حاجتك بعد النظر المتكرر إلى بيوت الآخرين إلى ضرورة امتلاك صورة لا تطبيق كلفتها. وربما كنت تريد علماً ينفعك، ثم صار همك أن يعرف الناس اسمك قبل أن يكتمل تعلمك. ليس كل اتساع في الرغبة اتساعاً في المصلحة، وليس كل ما تستطيع شراؤه جديراً بأن تثقل نفسك لأجله.

يمكنك أن تتعلم من نجاح غيرك دون أن تستنسخ حياته. اسأل عما ينفعك من سبب أو خبرة، وانظر إلى اختلاف الظروف والحقوق والقدرات. ما يصلح لشخص قد لا يصلح لك في وقتك الحالي. ولا تحتاج إلى الانتقاص من نجاحه

لتحتفظ بكرامتك؛ ففضل الله عليه لا يلزم منه سقوط حقك في الدعاء والسعي، ولا يكشف وحده ما خفي من حياتكما.

ما لا تخبرك به الصورة

الصورة التي تراها تخبرك بجزء من الواقعة. تعرف أن صاحبها حصل على شيء، ولا تعرف كل ما قبله وما بعده، ولا ما خفي من حياته. لا تبين من هذا الجزء حكمًا بأن أيامه كلها سهلة، ثم تقارنها بكل ما تعرفه من تعبك. وليس المطلوب أن تفترض أنه تعيس في الخفاء حتى ترتاح؛ فهذا تخمين آخر لا حاجة إليه. يكفي أن تتوقف عند ما تعلم.

وإذا وجدت في نفسك ألمًا عند سماع النعمة، فلا تجعل أول استجابة لك إعلان حكم قاس على ذاتك. انتبه إلى ما ستختاره بعد ذلك: هل تدعو لأخيك، وتحفظ حقه، وتسال الله من فضله، أم تنشر ما ينقصه وتستريح إلى تعثره؟ ليست كل حركة أولى في النفس اختيارًا مستقرًا، لكن الأفعال التي تتبعها تحتاج إلى مسؤولية واضحة.

قد يعينك أيضًا أن تقلل متابعة تعرضك باستمرار للمقارنة دون منفعة. هذا قرار في تنظيم ما تراه، لا عبادة مخصوصة ولا وعد بأن شعورك سيزول فورًا. اختر ما ينفعك في علمك

وعملك وصلاتك، واترك ما يستنزفك بلا حاجة. وإذا عاد
خاطر المقارنة، فلا تجعل اليوم كله جلسة لمحاكمته؛ ارجع
إلى الحق الذي تستطيع أدائه والسبب الذي تستطيع بذله.
ولا تنس من هو أشد حاجة منك حين تنظر إلى النعم. اقترب
بما تستطيع من عون يحفظ الكرامة، لا بفضول يبحث عن
تفاصيل الألم. الشكر الذي يلين به القلب يدعوك إلى الخير،
ويذكرك بأن رزقك مسؤولية بقدر ما هو منفعة. عندئذ يكون
النظر إلى أحوال الناس باب تواضع وعمل، وتخف حاجتك
إلى استعمال حياتهم دليلاً في قضية تعقدها على حياتك.

الفصل العاشر

الاستعفاف حين تضيق اليد

تشتد الحاجة أحياناً حتى يصير التفكير في الغد ثقيلاً. وقد يجتمع الضيق مع حرج من السؤال، فيبقى الإنسان بين ألم حاجته وخوفه من أن يراه الناس محتاجاً. ويحتاج من يكلمه إلى علم ورحمة؛ فلا يهينه باسم الاستعفاف، ولا يشجعه على تعلق لا نهاية له بما في أيدي الخلق. في الخبر الآتي عطاء حاضر وتربية للقلب، يجتمعان في مشهد واحد.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفذ ما عنده فقال «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».^{١٧}

١٧ البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، حديث ١٤٦٩، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بدأ المشهد بالسؤال والعطاء، ثم انتهى إلى بيان فضل الاستعفاف والاستغناء والتصبر. فلا يحسن أن نقتطع آخره لنجعله وسيلة إلى توبيخ من احتاج إلى المساعدة، ونغفل أن النبي ﷺ أعطى السائلين مما عنده. كما لا يحسن أن نغفل المعنى الذي يوجه المحتاج إلى حفظ نفسه وتربية صبره، حتى لا تصبح حاجته سبباً لتسليم قلبه كله للناس.

كرامة المحتاج ومسؤولية القادر

قد يحتاج الإنسان إلى سؤال مباح، أو إلى مال يستحقه، أو إلى معونة لا يستطيع دفع ضرورة بدونها. تفاصيل حكم المسألة تختلف باختلاف الحال، فلا نجعل كلمة الاستعفاف فتوى تمنع كل طلب. من أشكل عليه حكم حاله يسأل من يبينه له، ويذكر ما يلزم للبيان. وليس من الحكمة أن يلزم نفسه بالصمت حتى يضيع حق من يعول، ثم يسمى ذلك توكلاً من غير علم.

ومن كان قادراً على العون فليتذكر أن تعليم الفضائل لا يغنيه عن الرحمة العملية. قد تكون أمامه حاجة واضحة يستطيع تخفيفها، فيرسل إلى صاحبها كلاماً طويلاً عن الصبر بينما يمسك ما يطيق بذله. ليس كل من يذكر المعنى قد أدى حق

الموقف. أحياناً تكون الكلمة الأرفق سؤالاً عما يلزم، ثم مساعدة ممكنة تحفظ ستر المحتاج، أو إحالة صادقة إلى جهة موثوقة.

ولا يحتاج المحتاج أن يروي جميع أوجاعه ليحصل على حقه. يمكن أن يذكر الضروري بوضوح، وأن يحتفظ بتفاصيل لا تلزم. وإذا اعتذر إنسان عن العون، فلا يلزم أن نعلم سبب عجزه أو نحكم على قلبه؛ قد لا يملك ما نظن. لكن الاعتذار لا يثبت بدوره أن أبواب الرزق كلها أغلقت. يبقى السعي المباح، ويبقى السؤال المشروع، ويبقى من فضل الله ما لا نحيط به.

الصبر الذي يتعلمه المرء

يشير التصبر إلى جهد يبذله الإنسان في احتمال ما ينزل به. لا يشترط أن يبدأ وهو لا يشعر بضيق، ولا أن يكتم كل حاجة عن أهله ومن يستطيع مساعدته. يمكن أن يتعب ويطلب العون، ثم يجتهد في ألا يدفعه التعب إلى مال محرم أو ظلم أو قول لا يرضي الله. هذه مسؤولية ثقيلة أحياناً، ولذلك يسأل الله الصبر والإعانة ولا يغتر بقدرته.

وفي ضيق الرزق، قد تظهر اختيارات تبدو سهلة لأنها تعد بحل عاجل. عرض لا تفهم حقيقته، أو التزام لا تعرف قدرتك

على وفائه، أو كسب تعلم حرمة ثم تزيينه الضرورة قبل أن تسأل عن حكمها. لا تحول شدة الرغبة في الخلاص إلى دليل على صحة الطريق. تمهل بقدر ما يسمح به الموقف، واستعن بمن يفهم، واطلب بيانًا شرعيًا فيما التبس عليك بدل أن تحمل وحدك تبعة قرار لم تفهمه.

وقد تحتاج إلى ترتيب ما بين يديك قبل البحث عن سبب جديد. ميّز الضروري مما يمكن تأجيله، والحق الواجب مما اعتدت فعله للمظهر، والتزامك الحقيقي مما تخجل من تركه أمام الناس. ليس المقصود أن الفقر كله نتيجة سوء تدبير؛ فقد يضيق على الإنسان مع حسن سعيه. لكن النظر فيما يمكن تغييره يمنع العجز عن كل شيء بسبب العجز عن بعضه.

لا وعد بثروة ولا دعوة إلى الانطفاء

رجاء الغنى بالله لا يخولنا أن نعد كل متعفف بثروة قريبة أو وظيفة محددة. ولا يحملنا على دعوة المحتاج إلى ترك السعي حتى يبرهن على صدقه. يتعلم قلبه ألا يجعل الناس مصدر أمان مطلقًا، بينما تتحرك جوارحه في الأسباب المباحة بقدر الاستطاعة. وقد تمتد مدة الضيق مع هذا العمل، فيحتاج إلى مواصلة مستمرة لا إلى اتهام جديد لإيمانه.

وربما كان أنفع ما يقال له أن البداية التالية لا تحتاج إلى حل حياته كلها. معلومة صحيحة عن عمل، أو سؤال جهة مناسبة عن مساعدة، أو مراجعة التزام قائم، قد تكون خطوة ممكنة في يوم شديد. لا تضخمها حتى تعد بها كل الفرج، ولا تحتقرها لأنها لا تحل كل شيء. اسأل الله فضله، وخذ بما يتبين لك من سبب، واحفظ لنفسك ولغيرك الكرامة في الطلب والعطاء.

الفصل الحادي عشر

حين يغضب القلب

قد تغضب لأن حقًا ضاع، أو لأن كلمة جرحتك، أو لأن تعبًا متراكمًا وجد منفذًا في موقف صغير. والغضب لا يخبرك وحده بصحة ما ستفعله بعده. قد تكون محققًا في أصل شكواك ثم تتجاوز في الرد، فتضيف إلى الظلم الذي وقع عليك ظلمًا يصدر منك. يحتاج القلب هنا إلى قوة تحمله على إمساك الفعل قبل أن يصير تبعة جديدة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^{١٨}

ينقل الحديث النظر إلى موضع قد لا يصفق له الناس: أن يملك الإنسان نفسه وهو قادر على الاندفاع. قد يرى من حوله الرد القاسي علامة انتصار، بينما يكون الامتناع عن تجاوز

١٨ البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، حديث ٦١١٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

معلوم هو الفعل الذي يحتاج إلى قوة أكبر. هذه القوة لا تسقط الحق، لكنها تضبط الطريق إلى طلبه.

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال:

«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»^{١٩}

الرفق يحسن به أداء الفعل، فيكون أقرب إلى موضعه وأبعد عن الزيادة المؤذية. ولا يعني أن يترك الإنسان نفسه للأذى، أو أن يمتنع عن إجراء حازم يلزم لحماية حق. يمكن أن تقول لا بوضوح، وأن توقف حوارًا مؤذيًا، وأن تطلب تدخلًا مناسبًا، دون سب أو انتقام أو تهديد خارج حقك.

الوقفة التي تمنع خسارة جديدة

تخيل موقفًا افتراضيًا: وصلتكم رسالة تحمل اتهامًا، فكتبت ردًا طويلًا أضفت إليه أسرارًا لا علاقة لها بالموضوع. قبل الإرسال لا تزال تستطيع حذف ما لا يحل نشره، وفصل طلبك الواضح عن رغبتك في الإيلام. بعد الإرسال قد تحتاج إلى

١٩ مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، حديث ٢٥٩٤، عن عائشة رضي الله عنها.

إصلاح ضرر لم يكن في أصل الواقعة. ليست الوقفة تأجيلًا للكرامة؛ قد تكون الوسيلة التي تحفظ بها حقك وحق غيرك معًا.

اسأل عما تريد الوصول إليه بالفعل التالي. إن كنت تريد تصحيح معلومة، فحدد المعلومة ودليلها. وإن كنت تريد وقف أذى، فاطلب إجراء يوقفه. وإن كنت لا تستطيع الكلام دون تجاوز في تلك اللحظة، فقد تحتاج إلى إنهاء المحادثة مؤقتًا متى كان ذلك ممكنًا وآمنًا. هذه ترتيبات عملية، لا وصفة تضمن أن الطرف الآخر سيهدأ أو يستجيب.

وفي المواقف التي يوجد فيها خطر أو اعتداء مستمر، يقدم طلب الحماية والعون المناسب. لا يحمل خطاب الصبر والرفق المتضرر على البقاء وحده في مواجهة الأذى. ويختلف التصرف بحسب الحال، لذلك لا يغني مثال عام في كتاب عن تقدير الخطر وطلب المساعدة ممن يقدر عليها.

بعد أن تتكلم بما ندمت عليه

قد تفشل في الوقفة وتقول ما لا ينبغي. لا تجعل خطأ الطرف الآخر سببًا لإعفائك من إصلاح خطئك. تستطيع أن تعتذر عن لفظ تجاوزت به، وأن تبقي طلبك المشروع واضحًا. فالاعتذار

المحدد ليس إقرارًا بأن كل ما وقع عليك كان حقًا، كما أن بقاء
حقك لا يجعل كل رد صدر منك جائزًا.

ابدأ بما تستطيع وصفه دون دفاع طويل: رفعت صوتي، أو
نشرت أمرًا خاصًا، أو نسبت إليك ما لم أتحقق منه. ثم أصلح
ما يمكن إصلاحه، واستفت فيما تعلق بحق ملتبس. لا تجعل
الاعتذار مشروطًا بأن يبدأ الآخر باعتذاره؛ أنت مسؤول عما
تعلم من فعلك، مع بقاء الطريق المشروع إلى حقك.

ومن حسن الظن بالله في هذا الموضع أن ترجوه وأنت تختار
العدل وقت شدة النفس. لا تشترط أن ترى الآخر يعترف فورًا
حتى يكون لضبطك معنى. ولا تجزم بأن الله سيذله أمامك
في يوم معلوم؛ فهذا غيب لا تعلمه. اسأله أن يكفيك الظلم،
وأن يهديك لأحسن التصرف، وأن يصلح ما فسد، ثم ابذل
السبب المشروع الذي يناسب حالك.

الفصل الثاني عشر

الصحة والفراغ قبل أن يتغير اليوم

قد يظن الإنسان أن حاجته إلى حسن الظن تبدأ عندما يضيق عليه أمر. لكنه يحتاج إليه في السعة كذلك؛ حتى يعرف قدر النعمة، ويحسن استعمالها، ولا يغتر بامتداد الوقت بين يديه. اليوم الذي لا يشكو فيه من ألم شديد ولا ضرورة عاجلة قد يمر دون أن يشعر بما أتيح له فيه من عمل.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ»^{٢٠}

يلفت الحديث إلى نعمتين يكثر التفريط في الانتفاع بهما. وليس فيه ما يجعل المريض قليل القيمة، أو يجعل صاحب المسؤوليات محاسباً على فراغ لم يملكه. الخطاب يوقظ من وجد قدرة وسعة إلى ما يستطيع فعله بهما، ويمنع أن يصير اعتيادهما سبباً للغفلة عن شكرهما.

٢٠ البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، حديث ٦٤١٢، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الوقت الذي تملكه الآن

من السهل أن تؤجل الخير إلى صورة أوسع من الحياة: عندما يقل العمل، أو يكبر الأولاد، أو تنتظم الظروف. قد يكون لبعض التأجيل سبب حقيقي، لكن الانتظار المطلق يخفي أحياناً عملاً حاضراً يمكن أدائه. تعلم حكماً تحتاجه، أو صلة واجبة فرطت فيها، أو أمانة ينبغي إنهاؤها؛ هذه أمور لا يلزم أن تنتظر مشروعاً كبيراً.

وفي الجهة الأخرى، ليس اغتنام الوقت أن تحول كل ساعة إلى عمل مرهق، أو أن ترى الراحة المباحة خيانة للنعمة. للجسد والأهل والعمل حقوق، ويحتاج الإنسان إلى ما يعينه على أدائها. افتقاد التوازن قد يجعل بداية شديدة تنتهي بانقطاع، بينما يبقى العمل الممكن أقدر على المصاحبة. وقد بين المجلد الثاني اختلاف أحوال القلب في المباحات، ويعين هذا البيان على فهم السعة دون غفلة أو تضيق.

اسأل عن الأمر المؤجل الذي تتكرر كلفته بسبب التأجيل. ربما كان جواباً يجب أن يصل إلى صاحبه، أو ترتيباً يمنع تضيق حق، أو تعلماً يقل به خطؤك المتكرر. اختر فعلاً له ثمرة واضحة في مسؤوليتك الحالية، لا فعلاً يزين صورتك عن

نفسك فقط. فإذا ظهر أنك تحتاج إلى عون أو معرفة فابدأ بطلبهما.

حين يضيق ما كان واسعاً

قد تتغير صحتك أو مسؤولياتك، فتصير المقارنة بأيامك الماضية مصدرًا للحزن. تذكر ما تعلمته من خبرتها، لكن لا تجعل كل يوم جديد محاكمة لما كنت تقدر عليه. انظر إلى استطاعتك الحالية، وإلى ما يجب عليك فيها، وإلى الرخص والأحكام التي تحتاج أن تتعلمها من أهل العلم. الجهل بالحكم قد يحمل المرء على مشقة لم يؤمر بها، أو على ترك يستطيع أداء بعضه على وجه مشروع.

ولا تستخدم ماضيك لمعايرة من ضاق وقته اليوم. قد تتصور أن ما أمكنك يمكنه، ولا تعرف ما اجتمع عليه من مرض أو رعاية أو مسؤولية. إذا أردت إعانتته، فاسأل عما يخفف عنه بدل أن تزيده قائمة بما كان ينبغي أن يفعله. معرفة النعمة تصلح قلب صاحبها عندما تجعله أشكر وأرحم، وتفسد عليه معاملته إن جعلها دليل تفوق يحتقر به غيره.

ويبقى أمامك، ما دمت تستطيع، عمل اليوم. لا تعلق شكر الصحة على ضمان بقائها، ولا تجعل الخوف من زوالها

يحرملك الانتفاع بها. خذ بالأسباب المناسبة، وأد ما تعرفه من حق، واسأل الله العافية والبركة. أنت لا تملك توقيت ما يأتي، لكنك تستطيع أن تحسن فيما بين يديك، وتستغفر من تقصير مضى، وترجو أن ينفعك الله بما أعطاك.

الفصل الثالث عشر

حين تتأخر براءة المظلوم

قد يكون الأشد على المظلوم أن يعرف من نفسه البراءة، ثم يعجز عن حمل الناس على معرفتها. يسمع رواية لا تشبه ما وقع، ويجد أن الصمت يؤلمه وأن الكلام لا يحسم الأمر. في هذا الموضع يحتاج إلى حق يحفظ، وإلى طريق مشروع لبيانه، وإلى رجاء لا يتوقف على أن يصفق له الجميع. ومن أعظم الأخبار في هذا الباب حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الإفك الذي برأها الله منه.

نقرأ الرواية الصحيحة دون إضافة مشاهد أو خواطر لم تذكرها صاحبها. وفيها ألم وانتظار وسؤال، وفيها أمانة من حفظ لسانه، وفي خاتمها براءة أنزلها الله في كتابه. خصوصية هذه البراءة لا تنتقل إلى غيرها بدعوى مشابهة الألم؛ وما يعم القارئ هو ما دلت عليه النصوص من حفظ الأعراض والتثبت والعدل والرجوع إلى الله.

أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها

خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل، فقامت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فالتمست عقدي وحسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العلكة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فأمرت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلى فيينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدلى فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأيته، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير

استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها
فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش، بعد ما نزلوا
موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى
الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة، فاشتكت
حين قدمت شهرا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك،
لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي أني لا أعرف
من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي،
إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول " كيف تيكم
".

ثم ينصرف، فذاك الذي يرييني، ولا أشعر حتى خرجت بعد ما
نقهرت، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا،
وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا
من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا
نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح،
وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر
خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وأم
مسطح قبل بيتي، قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في
مرطها فقالت تعس مسطح.

فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا قالت أى هنتاه،
أولم تسمعي ما قال قالت قلت وما قال فأخبرتني بقول أهل
الإفك فازددت مرضا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي
ودخل على رسول الله ﷺ تعني سلم ثم قال " كيف تيكم ".
فقلت أتأذن لي أن آتي أبوى قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن
الخبر من قبلهما، قالت فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوى
فقلت لأمي يا أمتاه، ما يتحدث الناس قالت يا بنية، هوني
عليك فوالله، لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها
ولها ضرائر إلا كثرن عليها.

قالت فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت
تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى
أصبحت أبكي فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب،
وأسماء بن زيد رضى الله عنهما حين استلبث الوحى،
يستأمرهما في فراق أهله، قالت فأما أسماء بن زيد فأشار
على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم
لهم في نفسه من الود، فقال يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا
خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله، لم يضيق
الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك،

قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال " أى بريرة، هل رأيت عليها من شىء يريبك " .

قالت بريرة لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى ابن سلول، قالت، فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل، قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا، ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي " .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال يا رسول الله أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس، ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك، قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت على امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرا، لا يوحى إليه في شأني، قالت فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال "أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه".

قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ فيما قال. قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي أجيبي رسول الله ﷺ.

قالت ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن، إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به

فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أنني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال {فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون} قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت وأنا حينئذ أعلم أنني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه، قالت فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها "يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك".

فقالت أُمِّي قومي إليه. قالت فقلت والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل.

وأنزل الله {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه} العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر

الصديق رضى الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثه لقربته منه، وفقره والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله {ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم} قال أبو بكر بلى، والله إنى أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشة وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال "يا زينب ماذا علمت أو رأيت". فقالت يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرا. قالت وهى التى كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.^{٢١}

٢١ البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، حديث ٤٧٥٠، عن عائشة رضى الله عنها.

لا تجعل ألم البريء دليلاً عليه

وصفت عائشة مرضها وبكاءها وما بلغها. لم يكن تأثرها اعترافاً بما قيل فيها، ولم تكن حاجتها إلى السؤال دليلاً على ضعف حجتها. وقد يسيء الناس قراءة انفعالات المتهم؛ إن بكى قالوا ارتبك، وإن سكت قالوا عجز عن الجواب، وإن تكلم قالوا بالغ في الدفاع. بهذه الطريقة تتحول كل استجابة إلى تهمة، ولا يبقى طريق عادل لمعرفة الحقيقة.

العدل يطلب البيئة المناسبة للواقعة، ويحفظ للناس حقوقهم، ولا يجعل مهارتهم في الكلام ميزان براءتهم. في حياتنا العامة قد تنتشر رسالة مبتورة أو صورة بلا سياق، ثم يطلب من صاحبها أن يثبت براءته من كل تأويل يتخيله الجمهور. واجب المتلقي ألا يسلم للأثر الذي أحدثه الخبر في نفسه قبل أن ينظر في أصله، وواجب الناقل ألا يوسع دائرة الضرر بمجرد أن آخرين سبقوه إلى النشر.

ولا يبيح حفظ الأعراض إسكات من يطلب الحماية من أذى حقيقي. تختلف رواية شكوى لجهة تستطيع النظر فيها عن تحويل الاتهام إلى مادة ترفيه أو خصومة. يحتاج المظلوم إلى أن يسمع، وأن تقدر حاجته، وأن يسلك ما يستطيع من طرق عادلة. والتثبت ينبغي أن يحفظ الحقين معاً: فلا يصدق

كل اتهام بلا بيان، ولا يكذب كل متضرر لأنه لم يملك عرض قصته بالطريقة التي فضلها.

ما يحفظه صاحب العلم مما لا يعرفه

في الخبر سؤال ومشاورة، ووقف عند حدود ما علم. ومن أنفع ما يتعلمه القارئ أن العلم العام لا يجعل صاحبه محيطًا بكل واقعة خفية. من يعرف فضل إنسان لا يملك أن يصف كل تفاصيل حياته، ومن يسمع اتهامًا لا يملك أن يحوله إلى يقين لمجرد أن قائله تكلم بثقة. بين تزكية مطلقة وإدانة متعجلة مساحة واسعة لكلمة لا أعلم، ولطلب البيان، ولحفظ اللسان.

وقد ثبتت لعائشة براءتها بالوحي. لا يقول كل من تعرض لاتهام إنه ينتظر أن تنزل له علامة خاصة تحدد المذنب والبريء، ولا يصبح المنام أو المصادفة بينة على أعراض الناس. أما في الواقع الذي نعيشه فثمة وسائل معتبرة للتحقق وحقوق وإجراءات، يرجع في كل منها إلى أهلها. الرجاء بالله يصحب السعي فيها، ولا ينشئ دليلًا جديدًا خارج العلم.

وحين تعين متهمًا تعرف براءته أو تحسن الظن به، فاحفظ صدقك في حدود شهادتك. تقول ما رأيته وما تعلمه، وتمتنع عما لا تعلم. ليس من الوفاء أن تضيف له فضيلة لم تقع، أو أن

تنسب إلى خصمه نية لم تثبت. الدعوى العادلة تضعف حين تحمل ما ليس منها، والحق لا يحتاج إلى باطل يعينه. هذه أمانة عسيرة عند المحبة والغضب، لكنها من أوضح مواضع صدق النصرة.

كلمة زينب وحفظ السمع والبصر

ذكرت الرواية موقف زينب رضي الله عنها، مع ما كان بين أمهات المؤمنين من منافسة بشرية. حفظت ما تعلمه، فلم تجعل الموقف فرصة إلى قول ما لا علم لها به. هذا خلق يحتاج إليه المرء خصوصاً حين يأتي خبر يوافق خصومته. قد يكون أشد امتحاناً للتثبت أن تقع التهمة على من لا ترتاح إليه؛ يسهل حينئذ أن تقبل ما كنت سترفضه لو قيل عن صديقك.

يمكن أن تطبق هذا المعنى في خلاف مهني أو عائلي. إذا سئلت عما وقع فقل قدر ما شهدته. وإذا لم تحضر فلا تملأ الفراغ بتفسير يجعل جماعتك أبرأ وخصمها أشر. وإن علمت خطأ فلا تستره بشهادة زور، بل انظر في طريق بيانه الذي يحفظ الحق ويمنع الظلم. سلامة اللسان ليست تحيزاً لصورة جميلة، بل أمانة في الخبر وتقدير لموضع قوله.

ومن يحفظ لسانه قد لا ينال شهرة صاحب القصة المثيرة.
ربما لا يتذكر الناس من امتنع عن زيادة التهمة، بينما يتداولون
قول من بالغ فيها. لكن قيمة الفعل لا تقاس بمقدار انتشاره.
ترج الله وأنت تكف كلمة لا تعلمها، كما ترجوه وأنت تقول
حقًا يحتاج إليه. كلاهما قد يكون أصعب من مجارة المجلس،
وكلاهما يحتاج إلى أن يكون رضا الله أثقل في قلبك من رضا
الجماعة.

الفضل بعد وقوع الأذى

جاء في ختام الرواية خبر أبي بكر رضي الله عنه مع مسطح،
ورجوعه إلى النفقة بعد نزول الآية. لا نختصر الموقف إلى
شعار يفرض على كل متضرر إعادة كل علاقة كما كانت. في
القصة نص معين، وقرابة ونفقة وتوجيه امتثل له الصديق.
يستفاد فضل العفو والإحسان ومحبة مغفرة الله، مع بقاء
أحكام الحقوق والحماية وتقدير المصالح في الوقائع
الأخرى.^{٢٢}

٢٢ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير النور: ١٢ و ٢٢.

وقد يكون الإنسان قادرًا على عفو في جانب ولا يكون رجوعه إلى علاقة مؤذية آمنًا. لا ننسب إليه نقص الإيمان لمجرد أنه طلب حفظ حد أو استعان بجهة مختصة. وليس كل من ذكر العفو قد عرف نوع الأذى ودوامه وأثره. العدل في النصيحة يسبق استعجال خاتمة مريحة لمن يسمع القصة؛ بعض الوقائع تحتاج إلى ردع وحماية قبل الكلام على استئناف العلاقة.

ومن الجميل أن تبقى للمظلوم قدرة على الخير من غير أن يتخلى عن حقيقة ما وقع. يدعو لنفسه بالسلامة، ويطلب الإنصاف، ويجتنب تجاوزًا لا يحل، ويعفو حيث يعلم أن العفو مشروع ونافع ويختاره. هذا مجال أعمال متعددة، وليس طريقًا واحدًا نفرضه على الجميع. وفضل الله يرجى في الصدق والعدل والصبر والإحسان، كل في موضعه.

إذا لم ير الناس براءتك كلها

قد تنكشف بعض الحقيقة ويبقى أثر التهمة عند من لم يسمع التصحيح، وقد يتأخر الإنصاف زمنيًا. لا يجعل ذلك الكذب حقًا، ولا ينفي علم الله بما وقع. حاول تصحيح ما تستطيع بالطريق المشروع، واحفظ ما تحتاج إليه من بينة، ولا تنفق حياتك كلها في مخاطبة من قرر ألا يسمع. قد تحتاج إلى

مشورة تعينك على معرفة أي تصرف ينفع وأي تصرف يوسع الأذى.

وإذا عاد إليك الأمن بعد الخوف، فاعلم أن العودة إلى حياتك لا تتوقف على اعتذار كل من أساء. قد يبقى حق تطلبه، وقد يبقى ألم تعالجه بعون مناسب، ومع ذلك تكون لك أعمال وعلاقات نافعة لا ينبغي أن يبتلعها الحدث. لا يلزمك أن تسمي الأذى نعمة، ولا أن تزعم أنك عرفت لماذا وقع، كي ترجو الله في الحياة التي بعده.

حسن الظن في هذا الموضع أن تعرف أن ربك لا يظلم، وأنت لا تحتاج إلى أن يحيط الناس بكل قصتك ليعلمها هو. ويحملك ذلك على الصبر والعدل وطلب الحق، لا على انتظار انتقام خاص تجزم بوقته وصورته. قد تظل بعض الأسئلة مفتوحة، لكن صلتك بالله لا تصبح أسيرة لجواب الجمهور عنها.

الفصل الرابع عشر

حين تعود العافية ويتسع الرزق

كثيراً ما نفكر في الاختبار حين نفقد ما نحب، ونغفل عنه حين يعود إلينا ما افتقدناه. قد يحمل العطاء امتحاناً في الذاكرة والشكر والرحمة: هل نعرف من أنعم؟ هل نحفظ حقوق من يحتاج؟ هل يجعلنا تغير الحال أقرب إلى الضعفاء أم أشد نفوراً من رؤية ما يذكرون بماضينا؟ في الخبر الآتي ثلاث تجارب جمعها البلاء ثم العافية والمال، واftقرت عند الموقف من النعمة والسائل.

أن أبا هريرة رضى الله عنه حدثه أنه، سمع رسول الله ﷺ يقول "إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص. فقال أى شىء أحب إليك قال لون حسن وجلد حسن، قد قذرنى الناس. قال فمسحه، فذهب عنه، فأعطني لونا حسنا وجلدا حسنا. فقال أى المال أحب إليك قال الإبل أو قال البقر هو شك في ذلك، إن الأبرص والأقرع، قال أحدهما الإبل، وقال الآخر البقر فأعطني ناقة عشراء. فقال يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال أى شىء

أحب إليك قال شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قدرني
الناس. قال فمسحه فذهب، وأعطي شعرا حسنا.

قال فأى المال أحب إليك قال البقر. قال فأعطاه بقرة حاملا،
وقال يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال أى شىء أحب إليك
قال يرد الله إلى بصري، فأبصر به الناس. قال فمسحه، فرد
الله إليه بصره. قال فأى المال أحب إليك قال الغنم. فأعطاه
شاة والدا، فأنج هذان، وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل،
ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى الأبرص في
صورته وهيئته فقال رجل مسكين، تقطعت بي الحبال في
سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك
اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في
سفري. فقال له إن الحقوق كثيرة.

فقال له كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا
فأعطاك الله فقال لقد ورثت لكابر عن كابر. فقال إن كنت كاذبا
فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته،
فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا فقال
إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في
صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الحبال
في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك أسألك بالذي رد

عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. فقال قد كنت أعمى فرد
الله بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك
اليوم بشيء أخذته لله.

فقال أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضي الله عنك وسخط
على صاحبيك^{٢٣}.

ما يحق لصاحب الألم أن يطلبه

سأل كل واحد عما أحبه من زوال ألمه أو تغير حاله. لم يجعل
الخبر طلب العافية عيبًا، ولم يوجب عليه أن يتظاهر بأنه لا
يريد الشفاء. وفي هذا معنى يحتاجه من طال به المرض:
يستطيع أن يسأل الله العافية وأن يصبر على ما ابتلي به، ولا
يكون صدق الطلب منافيًا للتسليم. الذي يضبطه هو القول
والعمل، لا ادعاء أنه لم يعد يحب زوال الضر.

ووصف الخبر أثر نفور الناس من بعضهم. لا ينبغي أن يصبح
هذا الوصف إذنًا جديدًا لاحتقار المريض أو صاحب الإعاقة.
إنه يكشف وجهًا من ألمهم، ويذكر القارئ بمسؤوليته في ألا

٢٣ البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في
بني إسرائيل، حديث ٣٤٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه. و«بدا لله»: قضى أن يبتليهم،
وليس ظهور علم بعد خفاء ابن حجر، فتح الباري، شرح الحديث.

يزيده. لا تختزل إنساناً في مظهره أو حال بدنه، ولا تتعامل مع حاجته إلى رعاية كما لو كانت نقصاً في كرامته. الأحكام والإجراءات التي تحفظ الصحة لها أهلها، والازدراء ليس إجراءً صحيحاً ولا خلقاً يقره الرجاء بالله.

وحين يشترك أكثر من شخص في ابتلاء، لا يلزم أن تتشابه طلباتهم تماماً. قد يريد أحدهم استعادة وظيفة بدنية، ويشغله آخر قدرته على العمل، ويهتم ثالث بقبول الناس له. اسمع ما يقوله صاحب الحاجة دون أن تختار عنه ما يجب أن يؤلمه أكثر. لا يعد هذا الكتاب بتفسير جميع احتياجات الناس، لكنه يدعو إلى رحمة تحترم اختلافها بدل أن تحولهم إلى صور متطابقة.

الذاكرة التي تغيرت بعد الغنى

أنكر اثنان ما كانا عليه، ونسبا المال إلى صورة أخرى. لم يقفا عند الامتناع عن مساعدة السائل؛ بل أعادا كتابة تاريخ النعمة لينفصلا عن أعطاها. قد لا يقول القارئ الألفاظ نفسها، لكنه يحتاج أن ينظر في ميل النفس إلى نسيان البدايات. كان يعلم أنه محتاج إلى تعليم وعون وتيسير، ثم إذا استقرت له القوة صار يرى كل ما عنده صنعه وحده.

الاعتراف بفضل الله لا يلغي عملك الذي بذلته. تستطيع أن تقول إنك تعلمت واجتهدت، وأن الله هو الذي منحك أصل القدرة ويسر الأسباب. ولا يلغي كذلك إحسان الناس الذين أعانوك؛ تشكرهم على ما قدموا، ولا تحمل شكرهم على اعتقاد أنهم مستقلون بالنفع. المعرفة المتوازنة تعطي كل سبب وصفه، وتحفظ لله الفضل كله في خلق الأسباب وتيسير الانتفاع بها.

وقد تتبدل لغة الإنسان مع المحتاج بعد الغنى. كان يعرف صعوبة الانتظار، ثم صار يفسر كل تأخر بكسل، وكل سؤال بقلة تعفف. لا يلزم من خروجه هو من ضيق أن يصبح خبيراً بكل أسباب ضيق الآخرين. بعض ما فعله نافع ويمكن عرضه، وبعض ظروفه لا تتكرر لهم. نقل الخبرة إحسان حين يصحبه تواضع، ويصير قسوة حين يحمل على الجميع بوصفه الطريق الوحيد الذي لا يعذر من لم يسلكه.

أن تعطي دون أن تشتري حكاية

أقر الثالث بنعمة الله، وأذن للسائل فيما طلب. المعنى الظاهر صدق الشكر وبذل العون، لا إنشاء طريقة للتحقق من كل محتاج بإعادة تمثيل القصة. لنا أحكام الزكاة والصدقة

والحقوق بحسب أبوابها، وللمؤسسات ضوابط تحفظ المال والخصوصية. لا ينسخ خبر صحيح الحاجة إلى وضع كل نوع من المال في موضعه الشرعي.

ومن الرحمة أن تعطي بقدر ما تستطيع دون أن تطلب من المحتاج أن يعيد رواية ألمه كل مرة. قد تلزم معلومات لإثبات استحقاق أو إيصال عون، لكن ليس كل سؤال يخطر لك لازماً. احفظ سر من تساعد، واطلب إذنه فيما يحتاج إلى إذن، ولا تجعل صورته ثمناً لدعمك. وإن تعذرت المساعدة فبين حدودك بصدق؛ الاعتذار أرفق من وعد ممتد يبني عليه الإنسان ما لا تملك تقديمه.

قد يتغير حال من أحسنت إليه ثم لا يذكر بك بما تحب. لا يحول ذلك الإحسان إلى خطأ في أصله، ولا يبيح لك المن أو كشف خصوصيته للانتقام. راجع ما يتعلق بالحدز في المستقبل إن وجدت سبباً، لكن احفظ العمل من أن تجعل ثمرة قبوله عندك رهينة بشكر الناس. أنت ترجُ الله، ولهذا يمكن أن يبقى للخير معناه حتى حين لا تحصل على الاعتراف الذي انتظرت.

حدود ما نعرفه من المصائر

أخبر الحديث برضا الله عن واحد وسخطه على صاحبيه. نقبل الخبر الصحيح، ولا نستخرج منه أن كل غني امتنع عن طلب معين قد حل به الحكم نفسه، أو أن كل فقير لا حق دليل على عقوبة معينة. قد يكون الامتناع لحق أو عجز لا نعرفه، وقد يقع البلاء لمن أحسن. الحكم على شخص بعينه يحتاج إلى علم لا تمنحه لنا مشابهة عابرة لقصة.

وفي قراءة الخبر لنفسك، لا تقلبه إلى قلق متكرر من زوال كل نعمة إن نسيته ذكرها لحظة. المقصود إيقاظ الشكر وحفظ الأمانة، لا اختراع شرط خرافي لبقاء الرزق. تعرف نعمة فتحمد الله عليها، وتؤدي حقها بحسب ما علمت، وتستغفر من نقصك. وإذا جاء ابتلاء جديد فلا تجزم بعلته الخاصة دون دليل؛ عد إلى الدعاء والعمل والصبر فيما بين يديك.

النعمة التي تعترف بها تغير طريقة وقوفك أمام الناس. تستطيع أن تكون قويًا من غير استعلاء، وأن تستفيد من مالك من غير أن تراه ضامنًا دائمًا، وأن تساعد محتاجًا دون أن تنسى اشتراككما في الافتقار إلى الله. هذا من حسن الظن في السعة: أن ترجو بركة العطاء بحسن استعماله، لا أن تنام عن مسؤوليته لأنك فرحت بوصوله.

الفصل الخامس عشر

حين لا تعرف الحكمة كلها

تسأل النفس أحياناً عن سبب ما وقع، لأنها تتمنى أن يصبح الألم محتملاً إذا عرفت له تفسيراً. وقد يكون السؤال عن سبب ظاهر ينفع إصلاحه مشروغاً ومفيداً. لكن بعض ما نطلبه يتجاوز علم البشر: لماذا اختير لي هذا القدر دون غيره، ولماذا وقع في هذا اليوم، وما الخير الذي سيخرج منه على وجه التحديد؟ ليس كل سؤال يجد جواباً في هذه الحياة، ولا يسوغ أن نملاً الفراغ بخبر عن الله لم يخبرنا به.

ومن القصص التي تعلمنا حدود العلم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام. جاءت في القرآن، وروى النبي ﷺ خبراً في الصحيح يبين بعض سياقها. ليست دعوة إلى تعليق الأحكام على أسرار يزعمها الناس؛ بل تبين أن علم الله أوسع من علم خلقه، وأن ما أطلع عليه عبداً بوحي لا يملك غيره ادعاءه لنفسه.

حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ "أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أى الناس أعلم فقال أنا. فعتب الله عليه

إذ لم يرد العلم إليه. فقال له بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال أى رب ومن لي به وربما قال سفيان أى رب وكيف لي به قال تأخذ حوتا، فتجعله في مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثم وربما قال فهو ثمه وأخذ حوتا، فجعله في مكتل، ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى أتيا الصخرة، وضعا رءوسهما فرقد موسى، واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربا، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار مثل الطاق، فقال هكذا مثل الطاق. فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله.

قال له فتاه أرايت إذ أويانا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا، فكان للحوت سربا ولهما عجبا. قال له موسى ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا، رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم موسى، فرد عليه. فقال وأنى بأرضك السلام. قال أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل قال نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت

رشدًا. قال يا موسى إني على علم من علم الله، علمنيه الله لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه.

قال هل أتبعك قال {إنك لن تستطيع معي صبرا} * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا} إلى قوله {إمرا} فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، كلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذ أخذ الفأس فنزع لوحا، قال فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدوم. فقال له موسى ما صنعت قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئا إمرا.

قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا، فكانت الأولى من موسى نسيانا. فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا وأوماً سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقطف شيئا فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن

تستطيع معي صبرا. قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذرا.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض مائلا أو مأبiede هكذا وأشار سفيان كأنه يمسح شيئا إلى فوق، فلم أسمع سفيان يذكر مائلا إلا مرة قال قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت إلى حائطهم لو شئت لاتخذت عليه أجرا. قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا". قال النبي ﷺ "وددنا أن موسى كان صبرا، فقص الله علينا من خبرهما". قال سفيان قال النبي ﷺ "يرحم الله موسى، لو كان صبرا يقص علينا من أمرهما".

وقرأ ابن عباس أماهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين. ثم قال لي سفيان سمعته منه مرتين وحفظته منه. قيل لسفيان حفظته قبل أن تسمعه من عمرو، أو تحفظته من إنسان فقال ممن أتخفظه ورواه أحد عن عمرو غيري سمعته منه مرتين أو ثلاثا وحفظته منه.^{٢٤}

٢٤ البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث ٣٤٠١، من خبر ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم؛ تعليقات سفيان من الرواية وليست قولاً نبوياً.

العلم الذي يرد إلى الله

في أول الخبر تنبيهه إلى رد العلم إلى الله. مهما بلغ الإنسان لا يحيط بكل شيء، وقد يحتاج إلى تعلم أمر ممن عنده فيه علم ليس عنده. لا يهدم هذا قيمة العلم الذي يحمله، بل يحفظه من دعوى الإحاطة. ومن هذا الباب ألا تجعل معرفتك بأسباب بعض الحوادث تصريحًا بتفسير الغيب في كل حادثة أخرى.

قد يفهم المرء بعد سنوات أن قرارًا فاته كان سيحمله إلى تبعات لم يكن يعرفها. له أن يصف ما علمه من الوقائع وأن يحمد الله على ما ظهر له من خير. لكن هذا لا يثبت أنه أحاط بكل حكمة الحدث، ولا يجيز أن يعد غيره بأن خسارته ستتكشف بالطريقة نفسها. بعض الناس يعرف جانبًا من العاقبة، وبعضهم لا يظهر له ذلك، وكلاهما يبقى محتاجًا إلى الإيمان بخبر الله والعمل بما شرع.

والإقرار بحدود العلم يخفف أيضًا عبء المواساة. لا يلزمك أن تشرح للمصاب لماذا اختير له هذا الابتلاء حتى تعينه. يمكنك أن تقول ما ثبت من فضل الصبر والتكفير والرجاء، وأن تعمل في سبب يخفف عنه. ربما كان أقرب ما يحتاجه الاعتراف

بأنك لا تعلم جميع الحكمة، مع صدق حضورك معه فيما تستطيع.

لا تبرر الظلم بحكمة خفية

في قصة الخضر علم خاص جاء بيانه في الوحي. وخاتمة قوله في القرآن أنه لم يفعل ذلك عن أمره تحفظ هذا الحد. لا يملك شخص بعد ذلك أن يؤذي بريئاً أو يتلف مالا ثم يطالب الناس بتصديقه لأنه يرى حكمة لا يرونها. الأحكام التي نكلف بها معلومة من الشرع، وليست الإلهامات المزعومة طريقاً إلى إباحة الدماء والأموال أو إسقاط الحقوق.^{٢٥}

وهذا من أهم ما يحتاجه المظلوم عند سماع القصة. ثقتك بحكمة الله لا تعني أن المعتدي صار محسناً في اعتدائه، ولا أن واجبك إلغاء طلب الحماية. قد يقع الفعل بتقدير الله مع كونه محرماً على فاعله، ولك أن تنكره وتطلب رفعه بالطريق المشروع. خلط القدر بالحكم يجعل الجريمة قدراً يستسلم له المتضرر ويستريح به المعتدي، والشرع لا يجعل باباً للظلم بهذه الدعوى.

٢٥ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الكهف: ٨٢.

ومن حولك كذلك لا يملكون أن يعرفوا لك مصلحة خاصة في استمرار الأذى. ربما أمكنهم تقديم نصيحة تستند إلى وقائع، أو إحالة إلى من يقدر الخطر والحقوق، لكن عبارة إن في الأمر حكمة ليست خطة لحماية إنسان. نؤمن بحكمة الله، ونعمل بما أمرنا به من عدل ونصرة وإحسان. لا نحتاج إلى معرفة الغيب كي نؤدي الواجب الظاهر.

الصبر على نقص التفسير

قد يبقى في النفس سؤال لا يحسمه مثال ولا حجة مختصرة. لا يتحول ذلك وحده إلى حكم بأن كل معرفة سابقة قد بطلت. يمكنك أن تقول: لا أعرف الحكمة الخاصة، وأعرف أن الله لا يظلم، وأنه شرع لي الدعاء والسعي، وأن لي عنده ما أرجوه من الأجر والرحمة. هذه أصول صحيحة تحملك حين لا يتاح التفصيل، ولا تطلب منك أن تنكر ألم السؤال.

وإذا تحول السؤال إلى شبهة عقدية محددة فاطلب جوابها من أهل العلم، ولا تكتف بكتمانها حتى تتسع. صف الإشكال بصدق، واقرأ الجواب على قدره، وتجنب خلط مسائل كثيرة في جملة واحدة تمنع فهمها. أما إذا كان منشؤه حزنًا حاصرًا، فقد تحتاج إلى مواساة وعون مع البيان، ولا تغني مناظرة

طويلة عن حاجة شخص أثقله الفقد. معرفة نوع الحاجة جزء من حسن الجواب.

والصبر لا يوجب انتظار انكشاف الحكمة قبل أن تعيش. أمامك حق تؤديه، وعلاقة ترعاها، وعلم تتعلمه، ونفس لها حاجاتها. لا تجعل حياتك معلقة على خطاب سيصل يومًا ليشرح كل ما مضى. بعض الخير الذي ترجوه يبدأ بعمل ممكن الآن، مع بقاء المسألة التي لا تعلمها في علم الله.

حين تنتهي من القصة، اخرج منها بتواضع في العلم وثبات في الحكم. اعترف بما لا تعرفه، واحفظ ما تعلم أنه حق، ولا تجعل أحدهما يبطل الآخر. بهذه المعرفة يستطيع القلب أن يرجو ربه دون أن يصير كل من يدعي سرًا مرشدًا له، وأن يصبر على القدر دون أن يرضى بالظلم أو يترك السبب المشروع لرفعه.

الفصل السادس عشر

من يرافق المريض يحتاج إلى رفق أيضًا

حين يمرض إنسان تتغير حياة من حوله بدرجات متفاوتة. تتبدل المواعيد، وتتوزع مسؤوليات جديدة، وقد يحمل أحدهم جانبًا لا يراه الباقون. الكلام عن حسن الظن يوجه غالبًا إلى المريض، وينسى من يسهر معه أو يرتب حاجاته أو يحاول التوفيق بين خدمته وسائر الحقوق. هؤلاء يحتاجون إلى علم ورفق وتنظيم يتيح استمرار الإحسان دون ادعاء قدرة لا تنفذ.

ولا يسقط هذا الكلام أولوية حق المريض أو يجعل تعبهُ عبئًا أخلاقيًا عليه. إنما يطلب من القادرين أن يروا المسؤولية مشتركة حيث يمكن أن تشترك، وأن يتكلموا عنها بصدق، وأن يستعينوا بالخبرة المناسبة. ليس توزيع العمل قلة محبة، ولا طلب الراحة المباحة خيانة للمريض. قد يكون من حسن خدمته أن يبقى من يعينه قادرًا على أداء ما يلزمه بأمانة.

بين المحبة والقدرة

قد يحب المرء قريبه حبًا شديدًا ولا يملك مهارة يحتاجها في خدمته. الاعتراف بذلك أدعى إلى السلامة من الاجتهاد في شأن لا يعرفه. يسأل المختصين عما يحتاج إلى تعلمه، ويميز بين مساعدة عادية وبين إجراء لا يقوم به إلا مؤهل. لا يحول صدق المحبة العمل الخاطئ إلى نفع، كما لا يدل طلب العون على ضعف الصلة.

وفي الأسرة قد تنشأ خصومة حول من يحب أكثر بناء على عدد الساعات الظاهرة. لا تعرف هذه المقارنة دائمًا ما يحمله كل شخص من مسؤوليات أخرى، ولا جودة ما يقدمه. الأفضل أن توصف الحاجات: من يستطيع إيصال المريض، ومن يرتب معلومة، ومن يتولى شأنًا منزليًا، ومن يعوض الغائب. الكلام على أفعال محددة أقرب إلى الإنصاف من محاكمة القلوب في كل اختلاف.

وإذا قصر قادر في حق لازم فلا يستر التقصير بكلام عن اختلاف القدرات. يطلب منه حقه بوضوح، وتسعى الأسرة إلى ترتيب عملي. لكن العتاب الذي يملأ الوقت ولا يغير توزيع المسؤولية قد يضيف تعبًا إلى التعب. قد يفيد تدخل شخص

حكيم أو جهة مساعدة مناسبة بحسب الحال، مع صون خصوصية المريض ورأيه وقدرته على الاختيار.

لا تعد بما يرهقك ثم تلوم من صدقك

من شدة الحماسة يقول بعض الناس إنهم سيتولون كل شيء. ثم يثقل الحمل فيغضبون لأن الآخرين لم يفهموا حاجتهم دون أن يقولوها. الأصدق من البداية أن يبين الإنسان ما يستطيع، وأن يطلب مشاركة معلومة فيما يزيد عليه. ولو تغيرت قدرته بعد ذلك فليخبر من يعتمد عليه، بدل أن يترك الحق يضيع أو يتراكم في نفسه غضب لا يعرف الآخرون سببه.

ولا تمنعك حسناتك السابقة من الاعتذار عن كلمة أذيت بها من تخدمه. قد تتعب وتضيق، فيخرج منك ما لا يحل. تصلح قولك وتطلب عونًا في أسباب التعب، ولا تجعل الخدمة رصيدًا يبيح التجاوز. وفي الجهة الأخرى، لا يلزم المريض أن يتحمل إهانة لأنه محتاج؛ له كرامته وحقوقه، وتقدر المسؤوليات والوسائل بما يحفظ الجميع.

هذه معان تنظيمية وأخلاقية، وليست أحكامًا طبية على حال معين. ما يتعلق بالخطر أو الرعاية أو العلاج يرجع فيه إلى

المؤهلين. حسن الظن بالله يفتح باب الاستعانة بهم، ولا يجعل الأسرة ملزمة أن تحل وحدها ما يتجاوز علمها وطاقاتها.

معنى الإحسان في اليوم المتكرر

قد لا يحدث في يوم المرافق شيء يصلح لحكاية كبيرة. يؤدي موعد، وتجهز حاجة، ويجاب سؤال تكرر، ويصبر على اضطراب في الخطة. لا تفقد هذه الأعمال معناها لأنها لا تصحبها بشارة سريعة. يرجو صاحبها أجر النية الصالحة والعمل المشروع، ويسأل الله العون والقبول، ولا يقيس قيمتها بتحسن يملك الله وحده تقديره.

ومن حول المرافق يستطيعون الإحسان إليه بأشياء محددة. لا تقولوا له فقط اعتن بنفسك ثم تتركوه بلا بديل؛ انظروا في مهمة تستطيعون رفعها عنه. وقد يكون العون في حاجات بيته أو عمله أو في توفير وقت راحة مناسب، بحسب القدرة والإنز. الرحمة العملية تستمع قبل أن تقترح، وتلتزم بما وعدت، ولا تدخل في خصوصية لا تحتاجها.

إذا أحسنت اليوم ثم تعبت غدًا، فلا تجعل التعب حكمًا بفساد نيتك. راجع ما يلزم إصلاحه، واستعن على ما لا تطيق، واحفظ حق من أمامك. يمكن أن يصحب الرجاء حياة غير

مرتبة تمامًا؛ طاعته ليست مقصورة على ساعات الصفاء، بل تكون في أداء الأمانة وسط ما تعرض له من مشقة وتغير.

الفصل السابع عشر

حين تتغير قدرتك ولا تنقص كرامتك

قد يكون في حياة الإنسان دور عرف نفسه من خلاله زمنًا طويلاً. هو الذي يقود العمل، أو يقضي حاجات البيت، أو يسافر ويخدم ويعطي، ثم يتغير جسده أو عمره أو ظرفه، فيحتاج إلى من يعينه فيما اعتاد أن يؤديه وحده. لا يكون الثقل في الفعل المتعذر فقط؛ قد يكون في السؤال الذي يلح عليه: من أنا إذا لم أعد أستطيع ما كنت أستطيع؟

حسن الظن بالله لا يجيب بإلغاء التغير أو بوعد أن القدرة ستعود كما كانت. يعرف الإنسان أن كرامته لا تختصر في وظيفة بدنه أو مقدار إنتاجه، وأن التكليف يتعلق بالاستطاعة التي يتعلم حكمها، وأن أبواب الخير قد تختلف باختلاف الحال. له أن يحزن على فقد قدرة أحبها، وأن يسعى في سبب مشروع لتحسينها، وأن يستعين بالآخرين، دون أن يكون ذلك إقرارًا بأن حياته فقدت معناها.

صورة الأمس لا تقضي على اليوم

تخيل رجلاً كان يتولى شؤون أسرته بنفسه، ثم صار بعض ذلك يحتاج إلى مساعدة. قد يتابع كل تفصيل بقلق لأنه يرى قبول العون انسحاباً من مسؤوليته. وربما يرفض خدمة يحتاجها ليبرهن أنه لم يتغير. في هذا المثال الافتراضي يمكن أن يبقى صاحب رأي ومسؤولية، وأن توزع الأفعال بحسب القدرة، وأن يتعلم مع أسرته شكلاً جديداً للتعاون. ليست المسؤولية دائماً أداء كل شيء باليد نفسها.

وقد تمر امرأة بتغير يجعل وقتها وطاقتها مختلفين عما اعتادت، فتقارن كل يوم بصورتها الماضية وتقسو على نفسها. يفيدها أن تعرف ما يلزمها الآن وما تقدر عليه، وما يمكن أن يعينها فيه غيرها، وما يحتاج إلى رأي مختص. لا تصدر على نفسها حكماً من صورة التقطتها في زمن كانت فيه الظروف مختلفة، ولا تجعل ما تعرضه حياة الآخرين ميزاناً تفصيلياً لواجباتها.

هذه الأمثلة لا تنفي تقصيراً قد يقع، لكنها تمنع جعل كل تغير تقصيراً. لمعرفة الفرق انظر في الحق والقدرة والفعل، لا في الحنين وحده. قد يلزمك إصلاح تنظيم، وقد يلزمك تعلم حكم رخصة، وقد تحتاج إلى رعاية أو عون، وقد يكون ما

عليك احتمال عجز لا تملك رفعه. تتعدد الأجوبة لأن الأحوال متعددة، ولا يغني عنها لوم واحد يتكرر.

قبول الخدمة من غير خجل مهين

لك أن تحب الاستقلال فيما تستطيع، وأن تحافظ على مهارة نافعة، لكن لا تجعل الحاجة إلى الناس تهمة. البشر يتعاونون في مراحل حياتهم كلها، وإن اختلف ما يظهر من هذا التعاون. من يقدم العون اليوم احتاج إلى من يعلمه ويربيه ويسانده، وقد يحتاج غدًا إلى باب آخر من المساعدة. المعرفة بهذا الاشتراك تجعل الطلب أهدأ والعطاء أبعد عن المن.

ومن يعين كبيرًا أو مريضًا يحسن أن يسأله قبل أن يتولى عنه ما يستطيع اختياره. لا يتحدث في حضوره كأنه غير موجود، ولا يحذف رأيه لأن الحركة صعبت عليه، ولا ينقل كل تفاصيله إلى الأسرة بلا حاجة. قد يكون حفظ كرامته في كلمة وفي طريقة الانتظار بقدر ما هو في الخدمة التي تقدم. ويظل ما يتعلق بالأهلية والسلامة والرعاية المتخصصة محتاجًا إلى تقدير أهله.

ولا يلزم من قبول العون قبول كل تدخل. يمكنك أن تبين ما تحتاج إليه وما لا تريد مشاركته، وأن تشكر من أحسن وأن

تطلب تعديل طريقة أخرجتك. الرحمة تتسع لهذا البيان. من يحبك لا يحتاج أن يفهم احتياجه إلى حدود محترمة على أنه جحود لإحسانه، ومن يقدم الخدمة يتعلم أن صاحبها إنسان له إرادة وخصوصية لا مجرد مهمة يريد إنهاءها.

ما يبقى من أبواب الخير

قد يتعذر عمل كنت تداوم عليه، فتتعلم ما تستطيع أدائه وما يشرع لك في حالك. لا تبتدع عبادة لتعوض شعور الفقد، ولا تترك سائر الخير لأن صورة واحدة منه تعذرت. اسأل أهل العلم عن الحكم الذي تحتاجه، وانظر في الحقوق والأعمال النافعة المتاحة. ربما كان لك علم تعلمه، أو دعاء، أو كلمة عدل، أو إصلاح بين اثنين على وجهه، أو رعاية معنى فيمن حولك.

ولا يستحسن أن نكلف كل من ضعفت قدرته بمهمة جديدة ليثبت نفعه. قد تكون حاجته الآن إلى الراحة والرعاية، وقد يكون اضطراره إلى البحث عن دور ظاهر عبثًا إضافيًا. قيمة الإنسان لا تحتاج إلى مشروع مستمر يقنع به الآخرين أنه يستحق المكان. المطلوب أداء التكليف بحسب الاستطاعة،

والناس مأمورون بالرحمة وحفظ الحقوق، لا بتعليقها على مقدار ما ينتجون.

وإذا وجدت مجالاً تنفع فيه، فادخله على قدر علمك وقدرتك. لا يجعل تقدم العمر كل رأي صحيحاً، ولا يجعل صغر السن كل خبرة عديمة القيمة. يتعلم الناس بعضهم من بعض، وتصح المشورة حين تحفظ الاختصاص والحدود. من حسن الظن بالله أن تقبل أن ينفعك علم لم يكن عندك، وأن يفتح لغيرك باباً تكون أنت منتفعاً به.

شكر ما بقي دون إنكار ما فقد

قد ينصحك أحد أن تنظر إلى النعم الباقية. في النصيحة خير إذا لم تستعمل لإسكات ألمك أو إنكار حاجتك. يمكنك أن تقول إن في حياتك نعمة وإنك فقدت شيئاً مهماً، وأن تحمد الله وتسأله العون على الفقد في الوقت نفسه. لا تحتاج إلى اختيار وصف واحد يمحو بقية الصورة.

وقد يكون شكر النعمة أن تحسن استعمالها بقدرها، لا أن تستنزفها خوفاً من اتهامك بقلّة الشكر. الراحة المباحة التي تحتاجها، والسؤال عن الوسيلة المناسبة، وقبول الرخصة الشرعية في موضعها، ليست إنكاراً للخير الذي لديك. تعلم

كيف تعيش في حدود حالك بعلم، بدل أن تجعل كل يوم
إثباتاً متعباً أنك لم تتغير.

ثم احفظ لنفسك رجاء يتجاوز الصورة القديمة. قد تتغير
الأشياء التي تستطيع فعلها، لكن الله الذي ترجوه لم يتغير
خبره عن رحمته وعدله وفضله. ترجع إليه في هذه المرحلة
كما رجعت إليه في غيرها، وتسأله أن يعينك على ما أمرك،
وأن يبارك فيما أبقى لك، وأن يحسن خاتمتك. هذه صلة لا
تنقطع بانتهاء دور اعتدت عليه.

الفصل الثامن عشر

حين تأتي حياتك على غير الصورة التي أردتها

يرسم الإنسان لحياته ترتيبًا قبل أن يعرف جميع ما سيعرض له. دراسة ثم عمل ثم زواج ثم بيت وأبناء، أو طريق في العلم والخدمة يظن أنه سيقطعه في زمن معين. وقد يتأخر بعضه أو لا يقع، فيصبح أشد الألم في المقارنة بين الحياة الموجودة والحياة التي ظن أنها حق مستحق في موعد معلوم. يحتاج هنا إلى رجاء يحفظ رغبته المباحة ويعيد النظر في ما جعلها مقياسًا لكل حياته.

لا نطلب منه أن يسمي الحاجة وهمًا إذا كانت حقيقية، ولا أن يرضى بظلم وقع في طريقه، ولا أن يتوقف عن السعي. إنما يسأل: ما الذي أحتاج إليه فعلاً، وما الذي أضافه توقيت الناس وتوقعهم وصورهم إلى هذه الحاجة؟ قد يطلب الزواج ويؤلمه السؤال المتكرر عنه أكثر من بعض وحدثه، وقد يطلب عملاً وينهكه إعلان كل نجاح لزملائه، وقد يرجو ولدًا فيجد نفسه مطالبًا بتبرير حال لا يملك أمرها للناس.

حق الرغبة وحدود المطالبة

لك أن تسأل الله ما تحب من مباح، وأن تبذل أسبابه المشروعة، وأن تحزن إذا تأخر. لكن الرغبة لا تبيح ظلم من حولك، ولا تجعل من لم يوافقك على علاقة أو اتفاق معتدياً عليك لمجرد أنه لم يختار ما اخترت. وحق السؤال لا يتحول إلى حق في النتيجة التي يملك غيرك بعض أسبابها. حفظ هذا الفرق يحميك من أن تضيف إلى ألم الانتظار خصومة لم يثبت موجبها.

وقد تحتاج إلى مراجعة بعض الشروط التي وضعتها. هل هي أحكام لازمة أم تفضيلات يمكن تغييرها؟ هل تستند إلى حاجة حقيقية أم إلى صورة تريد أن تظهر بها؟ لا يجيب عن ذلك كتاب عام بدلاً منك، لكن السؤال الصادق قد يفتح خياراً لم تكن تراه. وإذا تعلق الأمر بحق أو حكم أو خطر فاستعن بمن يبينه، ولا تتنازل تحت ضغط اليأس عن أصل تعلم أنه لا يجوز تركه.

وفي الطرف الآخر لا يحمل الرجاء على انتظار بلا سبب إذا كان السبب ممكناً. قد تقول إنك تنتظر الفرج، بينما لم تسأل عن فرصة، أو لم تتعلم مهارة، أو لم تبين رغبتك بالطريقة المناسبة. عين ما في يدك وافعل منه ما تقدر عليه، واعترف

بما ليس في يدك. لا تنسب لنفسك القدرة على كل شيء، ولا تحرمها من كل قدرة لأن بعض الأمور تعذرت.

حياة لا تنتظر إذنًا من الفرصة الغائبة

قد يتوقف المرء عن أعمال يحبها حتى يحصل على الأمر الذي ينتظره. يؤجل التعلم والصدقات المباحة وخدمة أهله والعناية بما يستطيع، كأن حياته الحقيقية لم تبدأ بعد. ربما احتاج إلى تعديل هذا التعليق؛ للمستقبل باب ترجوه، ولليوم باب موجود. تستطيع أن تسعى في الأول وأن تعيش الثاني بأمانة، ولا يلزم أن يخون أحدهما الآخر.

تأمل شابًا ينتظر عملاً مناسبًا فيترك كل تعلم لأنه يرى أن كل ما دونه لا قيمة له. قد لا يستطيع تغيير السوق، لكن يمكنه أن يسأل عما يحتاجه، وأن ينظم وقتًا محدودًا لما ينفعه، وأن يقبل عملاً مباحًا مناسبًا إن تيسر، بحسب حاله وحقوقه. وتستطيع امرأة تنتظر شأنًا أسريًا أن تحفظ لنفسها أبواب علم وصلة ونفع لا تتوقف كلها عليه. هذه صور افتراضية لا تختزل اختلاف القيود التي يعيشها الناس.

ولا يقال لمن عجز عن ذلك كله إنه هو الذي يمنع الفرج. بعض الأحوال تضيق فعلاً، وقد يحتاج صاحبها إلى عون قبل

حاجته إلى نصيحة. المقصود البحث عن الممكن بصدق، ولو كان صغيراً، لا اختراع واجبات جديدة يلام عليها المتألم. الرجاء الرحيم يفتح باباً يستطيع دخوله، ولا يرسم له سلماً من المهام ليبرهن به أنه يستحق المساعدة.

أسئلة الناس التي تحتاج إلى حدود

قد يسأل القريب بدافع المحبة، لكن تكرار السؤال يزيد الألم. تستطيع أن تجيبه بعبارات تحفظ الأدب والخصوصية: ندعو الله بالخير ونسعى فيما نقدر عليه، وسأخبركم بما أحب مشاركته حين يتيسر. ليس هذا كذباً ولا قطيعة بمجردة، بل بيان لحدود خبر لا يحتاج كل مجلس إلى فتحه. وتحتاج العبارة إلى أن تكون صادقة ومناسبة للعلاقة، لا إلى استعمالها سلاحاً في كل حديث.

ومن يسأل يتعلم أن الاهتمام لا يوجب اقتحام التفاصيل. قد يكفي دعاء صادق وعرض عون محدد إن كان لديك ما ينفع، ثم ترك مساحة لصاحب الشأن. لا تقارن قصته بمن تزوج أو أنجب أو نجح، ولا تجعل اختيارك الشخصي معياراً لما يجب أن يريده. بعض الأسئلة يحمل في ظاهره فضولاً لا يضيف إلى حياة المسؤول إلا عبء الجواب.

ما فاته شيء ليس هو الحياة كلها

قد يكون الفائت كبيرًا بالفعل، فلا ننقص قدره بكلام سريع. لكنه يظل جزءًا من حياة أوسع في علم الله، وليس حكمًا جامعًا على كل ما سيأتي أو على كل خير فيها. قد لا ترى هذه السعة في وقت الحزن، فتستعين بمن يعينك على اليوم القريب، وتعود إلى الدعاء والعمل الممكن. لا يلزم أن تؤمن الآن بصورة بديلة مكتملة حتى تكون لك خطوة صحيحة.

وربما جاءت الفرصة بعد زمن فتحتاج أن تستقبلها بعلم جديد، وربما لم تأت بالصورة التي تمنيتها. لا يملك الكاتب أن يحدد أي الحاليين لك. الذي يستطيع بيانه أن صلتك بالله لا تتوقف على اكتمال جدول رسمته، وأن حقوقك وواجباتك وكرامتك لا تنتظر توقيع الناس على نجاح سيرتك. ترجّ فضله في حاجتك وفيما لا تعلم من الخير، وتسأله أن يرضيك بما قسم لك وأن يهديك لما يحب.

الفصل التاسع عشر

حين يحمل البيت أكثر من هم

قد لا تأتي الابتلاءات منفردة. مرض مع ضيق مال، أو انتقال سكن مع فقد قريب، أو مسؤولية عمل ثقيلة مع خلاف أسري. يجد المرء أن النصيحة التي كانت مناسبة لمشكلة واحدة لا تكفي حين اجتمعت الأمور، فيتهم نفسه لأنه لم يستطع تنفيذ ما بدا سهلاً على الورق. تحتاج الأسرة في هذه الحال إلى نظر يجمع الحقوق والقدرات، ويعين على ترتيب ما لا يحتمل التأخير وما يمكن توزيعه أو تخفيفه.

وحسن الظن بالله يرافق هذا الترتيب ولا يغني عنه. ندعو أن يصلح الله حالنا، ونتكلم بصدق عن حاجتنا، ونطلب العون في موضعه. لا يكفي أن يقال إن عليكم الصبر ثم يترك كل فرد يتصور أن عليه أن يحمل الجميع وحده. الصبر على أداء الحقوق يحتاج أحياناً إلى مشورة وتنظيم وتخفيف مسؤولية، كما يحتاج إلى قوة قلب ودعاء.

وصف الواقع قبل تبادل اللوم

في صورة افتراضية، تأخر أحد أفراد الأسرة عن عمل اتفق عليه، ففسره الباقون بأنه لا يبالي. وربما كان مقصراً، وربما تعارضت عليه حاجات لم يخبرهم بها. إذا بدأ الحوار باتهام النية صار الدفاع عن النفس أهم من إصلاح المهمة. أقرب الأسئلة إلى النفع: ما الذي لم ينجز، وما أثره، وما القدرة المتاحة الآن، وكيف نمنع تكرار الضرر؟ لا يلغي هذا المحاسبة لكنه يجعلها متصلة بالفعل.

وقد يحتاج كل فرد إلى أن يذكر التزاماته التي لا يراها الآخرون. بعض العمل داخل البيت لا ينتبه إليه من غاب عنه، وبعض ضغط الخارج لا يظهر في لحظة العودة. إظهار ما يلزم لفهم العبء يعين على عدل في التقسيم، من غير منافسة فيمن يتعب أكثر. الهدف أن تحفظ الحقوق، لا أن يفوز أحد بلقب أكثر الناس تضحية.

وإذا كان في البيت أذى أو خطر فلا تختصره في مشكلة تنظيم. بعض الوقائع تحتاج إلى حماية وتدخل مختص وإجراءات تحفظ الحق. الحديث عن التعاون لا يحمل المتضرر على أن يشارك في ترتيب استمرار الاعتداء. لكل

مسألة قدرها، ولا يغني مثال أسرة متعاونة عن تقدير واقع تختلف فيه القوة والقدرة والسلامة.

الاتفاق الذي يفهمه الجميع

العبارات العامة مثل ساعدوني أو تحملوا مسؤولياتكم قد تصف حاجة حقيقية، لكنها لا تبين دائماً ما الذي ينتظر من كل شخص. يمكن أن يتفق القادرون على أعمال واضحة ووقت مناسب وطريقة للإخبار عند التعذر. هذا تنظيم اختياري قابل للمراجعة، وليس مقياساً لمحبة بعضهم لبعض. وقد يكون بعض أفراد الأسرة أصغر أو أضعف من أن يتحمل ما يتحمله غيره، فيراعى ذلك بإنصاف.

ومن الوفاء أن يخبر الإنسان حين لا يستطيع، بدل أن يترك الآخرين يبنون على وعده. ومن الرحمة ألا يجعل إخباره بالتعذر مناسبة لإهانته إذا كان صادقاً، بل ينظر في بديل أو تعديل. وإذا تكرر التفريط بلا عذر عولج بوضوح بحسب الحق والعلاقة، دون أن يتحول إلى إعلان أن هذا الشخص لا خير فيه أبداً. حفظ كرامته لا يمنع مطالبته بما عليه.

ألا نجعل الأطفال حملة قلق الكبار

يفهم الصغار من التغير ما يناسب أعمارهم وحاجاتهم، ولا يلزم أن يحملوا تفاصيل كل خلاف أو خوف مالي أو طبي. يحتاجون إلى صدق يطمئنهم إلى ما يعلم، لا إلى وعود كاذبة ولا إلى أسرار تثقلهم بما لا يستطيعون تغييره. حين لا يعرف الكبير جوابًا، يستطيع أن يبين أنهم سيسألون من يعرف، وأن الكبار يعملون فيما يلزم، بدل أن يخلق نهاية مضمونة للحادثة.

وتستعان الخبرة التربوية المناسبة إذا تعقدت الحال. لا تجعل مادة كتاب عام بديلًا عن فهم أثر الوقائع في طفل بعينه. يستطيع الأهل أن يحفظوا له ما أمكن من رعاية وأمان وروتين مناسب، وأن يستمعوا إلى أسئلته دون توبيخ لمجرد خوفه. الرجاء الذي يسمعه في البيت ينبغي أن يقترن بصدق ورحمة، لا بأن يطلب منه ألا يحزن كي يكون مؤمنًا جيدًا.

حق البيت في بعض السعة

قد يتصور أهل الابتلاء أن كل فرح مباح بينهم قلة وفاء للمصاب. فيمتنعون عن حديث لطيف أو راحة مناسبة، وتصبح الحياة انتظارًا صامتًا لزوال جميع الهموم. ليس من

لازم الصبر أن تمنع كل فسحة مباحة ما دامت لا تضيع حقًا
ولا تجرح صاحب حاجة. قد تعينهم تلك السعة على
الاستمرار في الرعاية والمسؤولية، دون أن تدعي أنها أزال
أصل الألم.

والشخص الذي يبتسم في وسط هذه الأحوال لا يلزم أن
يكون أقل إحساسًا بها، كما أن من لا يبتسم لا يلزم أن يكون
أقوى وفاء. اتركوا للتعبير المباح سعة، وركزوا على الحقوق
التي يمكن معرفتها. بعض ما يزيد البيوت ثقلًا أنها لا تواجه
المشكلة وحدها، بل تواجه معها محاكمات مستمرة لطريقة
شعور كل فرد.

حين يجتمع الدعاء بالصدق والتعاون، يبقى للبيت قدر من
النظام والرحمة وسط ما لا يملكه. قد تستمر بعض المشكلات،
لكن لا يلزم أن تتحول كل دقيقة إلى خصومة جديدة. ترجون
الله معًا، ويعين بعضكم بعضًا فيما يستطيع، ويستعان بمن له
علم أو قدرة فيما خرج عن حدودكم. هذا عمل حاضر له
معنى، وإن لم يحل جميع ما ترجون حله في يوم واحد.

الفصل العشرون

ما يبقى حين ينفد ما في أيدينا

قال الله تعالى:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. [النحل: ٩٦]^{٢٦}

يذكر السعدي في تفسير الآية تفاوت ما يفنى وما يبقى، ويربط ذلك بإيثار ما ينفع والقيام بالأوامر، لا بترك مصالح الدين والدنيا النافعة. فالتذكير بالآخرة لا يدعو إلى إهمال يومك، وإنما يصح ميزانك فيه: أي منفعة تطلب، وأي ثمن تدفع، وأي حق تحفظ حين تتعارض الرغبات؟^{٢٧}

قد تعيش زمناً ترى فيه الخسارة بوضوح ولا ترى العوض. يفيدك الإيمان بالآخرة أن تعلم أن عمر الدنيا ليس كل ميدان الجزاء، وأن العدل لا ينتهي عند آخر خبر نشره الناس عن واقعك. لا يجعل هذا الظلم مقبولاً، ولا يمنع طلب الإنصاف،

٢٦ القرآن الكريم، النحل: ٩٦.

٢٧ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير النحل: ٩٦.

لكنه يحفظ للقلب أفقًا حين يعجز البشر عن رد كل شيء كما كان. ما وعد الله به حق، وما لم يخبرنا بتفصيله لا نعيه من عندنا.

لا تختصر الثواب في شعور قريب

قد تعمل عملاً صالحاً ولا تجد راحة مباشرة. تقوم بحق متعب، أو تصبر عن قول محرم، أو ترد أمانة يصعب عليك ردها، ثم يبقى في النفس شيء من الضيق. لا يجعل ذلك العمل عديم الثمرة. للأجر معناه الذي أخبر به الشرع، وليس شرطه أن تشعر بعد كل طاعة بمكافأة حسية سريعة. تبذل ما يصح به العمل وتسال القبول، وترجو فضل الله في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل لا تجعل شعوراً جميلاً بعد فعل ما دليلاً كافياً على مشروعيته. قد يرتاح الإنسان لما يوافق هواه أو يلقي عليه ثناء، ويبقى محتاجاً إلى معرفة الحكم وأداء الحق. الميزان الذي يربط الخير بالشعور وحده يضيق عن حقيقة العبادة؛ بعض الطاعة شاق، وبعض المعصية لذيذ في عاجلها، وإنما يهديك الوحي إلى ما يحبه الله، وتتعلم كيف يعمل القلب في ضوئه.

قد يساعدك هذا الفهم في طول الخدمة والمرض والانتظار. لا تطالب كل يوم بأن يمنحك برهاناً حسيّاً على نفع صبرك. تعرف ما ثبت من الوعد، وتؤدي ما تستطيع، وتطلب رفع الضر والعافية. وليس الصبر انقطاعاً عن الحياة، بل حفظاً لما أمرك الله به فيها حين تعرض المشقة.

نصيب الدنيا الذي لا يبتلع الآخرة

للرزق والبيت والعلاقة والعمل قيمتها في حياة الإنسان، ويجوز طلب خيرها على وجهه. لكن إذا صار الحصول عليها مبرراً لترك كل حق، أو صارت خسارة واحدة منها دليلاً في ذهنك على سقوط كل معنى، احتجت إلى رد النظر إلى ما هو أبقي. ليست وظيفة الآخرة أن تلغي حاجات الدنيا، بل أن تمنع الدنيا من ادعاء أنها كل ما يملك الإنسان أن يرجوه.

ومن هنا تظهر قيمة العمل الذي لا يترك أثراً مشهوراً. معروف خفي، أو كلمة عدل لم تنتشر، أو كف أذى لم يعرفه الناس، قد لا يدخل شيء منه في سيرة نجاح تتداولها المنصات. ومع ذلك يرجى له عند الله ما لا يبلغه تقدير الجمهور. لا تحتاج إلى تحويل كل خير إلى قصة مصورة حتى يعترف قلبك أن له وزناً.

والحزن على ضياع أثر دنيوي لا يلزم أن يختفي فوراً. من تعب في مشروع ثم فقدته يحزن، ومن بذل في علاقة ثم انقطعت يتألم، ومن أمل في صحة ثم تغيرت يشتاق. يعرف مع ذلك أن الخسارة لا تعطيه علماً بأن كل ما بذله من صالح العمل قد ضاع عند الله. يميز بين نتيجة دنيوية فاتت وبين أجر يرجوه، ويتعلم ما يحتاج إلى تصحيحه دون تعميم يهدم الماضي كله.

معرفة القدر بين الأسى والبطر

قال الله تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. [الحديد: ٢٢]^{٢٨}
 ﴿لَّكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [الحديد: ٢٣]^{٢٩}

يبين السعدي أن معرفة سبق القدر تعين على ألا يسترسل الإنسان في الأسى على الفائت، وعلى ألا يحمله العطاء على

٢٨ القرآن الكريم، الحديد: ٢٢.

٢٩ القرآن الكريم، الحديد: ٢٣.

البطر والفخر ونسبة النعمة إلى نفسه استقلالاً. وليس المقصود محو أصل الحزن الإنساني أو منع فرح الشكر؛ فقد ثبت في السنة الحزن والفرح المشروعان. المقصود أن يهذب العلم بالله طريقة استقبال الفقد والعطاء، فلا يملكان على القلب حكمه كله.^{٣٠}

قد يخف عنك لوم خيالي حين تعرف أن ما وقع لم يكن خارج علم الله وقدره، لكن هذا لا يمنع مراجعة تقصيرك الحقيقي. وتخف عنك غفلة عند النعمة حين تعلم أنها من فضله، لكن ذلك لا يمنع الاعتراف بالجهد الذي بذلته وشكر من أعانك. العلم بالقدر لا يسوي بين الطاعة والمعصية، ولا بين الإحسان والظلم؛ أحكام الأفعال تبقى كما شرعها الله.

إلى من نترك ما لم نستطع إصلاحه

نترك علم ما خفي إلى الله، ونسأله أن يصلح ما لا نقدر عليه، ونؤدي ما بقي في وسعنا. ليست هذه كلمات تقال لإغلاق كل نقاش، بل ترتيب لحدودنا: ما يمكن فهمه نطلب علمه، وما يمكن إصلاحه نسعى فيه، وما تعذر لا نخترع لأنفسنا قدرة

٣٠ السعدي، تيسير الكريم الرحمن، تفسير الحديد: ٢٢-٢٣.

عليه. وقد نحتاج إلى من يساعدنا على معرفة أي الأمور من أي قسم، لأن الحزن أو الخوف قد يخلطانها.

وحين تقرأ هذا الفصل وأنت في سعة، اجعل منه علمًا يلين به قلبك لمن ضاق عليه يومه. لا تلق على الناس كلام الآخرة ليكفوا عن مطالبتك بحقوقهم في الدنيا. إن كنت قادرًا على نصرة أو أداء حق، فافعل. الوعد الأخروي لا يعفيك من الأمانة الحاضرة، بل يدعوك إليها ويذكرك أن ما تعمله مسؤولية لا مجرد اختيار للصورة التي تظهر بها.

حسن الظن الذي تتسع فيه الآخرة يحمل الإنسان إلى العمل، ثم يمنعه أن يحصر كل الجزاء في ما رآه من الدنيا. يبقى له رجاء في رب يعلم السر وأخفى، ولا يضيع أجر من أحسن، ولا يظلم أحدًا. ومن هذه المعرفة يجد القلب ما يستند إليه عندما ينفذ بعض ما في اليد، وتضييق العبارة عن وصف ما بقي من ألم.

الفصل الحادي والعشرون

حين يضيق المكان وتتسع أبواب السعي

قد يقرأ المرء خبر أم إسماعيل عليه السلام فيسمع منه كلمة الثقة وحدها، وقد يقرأه آخر فيرى الحركة بين الصفا والمروة وحدها. والقراءة المتصلة تجمع الأمرين في قلب واحد: سؤال عن أمر الله، ويقين به، وعناية بطفل، وبحث عن ماء، واستماع إلى صوت، ثم حفظ للنعمة حين جاءت وتنظيم للحياة حولها. ليس في الخبر قلب صدق ثم عطل ما يستطيع، ولا سعي جعل صاحبه مستغنياً عن ربه.

وهذا خبر عن إبراهيم وأهل بيته في مقام خاص ثبت بالنقل. لا يجعله أب أو زوج إذناً بأن يترك من تلزمه رعايتهم في مهلكة ثم يطالبهم بالثقة. إبراهيم عليه السلام مأمور من ربه، ولم يثبت لأحد بعده أن يجعل إهماله أمراً إلهياً بمجرد دعواه. نقرأ الخبر لتتعلم حقيقة العبودية التي ظهرت فيه، مع إبقاء خصوصياته في موضعها.

قال ابن عباس أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها

إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آله الذي أمرك بهذا قال نعم. قالت إذا لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال {ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذي زرع} حتى بلغ {يشكرون}.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة،

فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ﷺ " فذلك سعى الناس بينهما ". فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت صه. تريد نفسها، ثم تسمعت، فسمعت أيضا، فقالت قد أسمعت، إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك، عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﷺ " يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا ". قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام، وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا. فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال

وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا نعم.

قال ابن عباس قال النبي ﷺ " فألقى ذلك أم إسماعيل، وهى تحب الإنس " فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم، بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر، نحن في ضيق وشدة. فشكت إليه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئا، فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال فهل أوصاك بشيء قالت نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك. قال ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه. فقالت خرج يبتغي لنا. قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم،

وهيئتهم. فقالت نحن بخير وسعة. وأثنت على الله. فقال ما طعامكم قالت اللحم. قال فما شرابكم قالت الماء. فقال اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ " ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه ". قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال فأوصاك بشيء قالت نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبكي نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال فاصنع ما أمرك ربك. قال وتعينني قال وأعينك. قال فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو

يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}.

قال فجعلنا بينيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}.^{٣١}

السؤال الذي يعرف على أي شيء يعتمد

سألت أم إسماعيل إبراهيم عن ذهابه، ثم سألت هل الله أمره بهذا. وحين علمت أنه أمر الله ظهر جوابها الواثق. للسؤال هنا وظيفة بينة؛ هو طلب معرفة، لا اتهام يفسد الإيمان. لم يكن تعلقها بالأرض الخالية في ذاتها، بل بربها الذي أمر. ولهذا ينبغي أن يتعلم القارئ الفرق بين ثقة تقوم على خبر صحيح وبين دعوى بشرية تطلب منه إلغاء عقله ومسؤوليته.

قد يطلب منك إنسان أن تتخذ قرارًا خطيرًا ثم يقول توكل على الله. تسأله عن المعلومات، والحقوق، وما يترتب على القرار، ومن له أهلية النظر فيه. هذه الأسئلة لا تناقض التوكل؛

٣١ البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث ٣٣٦٤، من خبر ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه ما يرفعه إلى النبي ﷺ. المنطق: ما يشد به الوسط؛ وغوات: إغاثة؛ وتحوضه: تجمع حوله ما يحفظ الماء؛ وطائر عائف: يحوم حول الماء؛ والجري: الرسول.

إنها تحميه من أن يستخدم شعارًا لتمرير اختيار غير مدروس. وإذا نسب أحد أمرًا معينًا إلى الدين طلبت دليله وسألت عنه من يعلم، ولم يكن حسن صوته أو شدة ثقته كافيًا للإلزام. وتحتاج الأسر إلى هذا الفرق حين يختلف أفرادها في انتقال أو عمل أو نفقة. قد يكون في بعض الخيارات خير، لكن الخير المتوقع لا يسقط حق من سيتأثر في البيان والمشاورة بحسب ما له من حق. لا يكفي أن يقول صاحب القرار إنه مطمئن، ثم يجعل كل طلب للتفصيل اتهامًا لله. الطمأنينة الشخصية خبر عن شعوره، والمسؤولية المشتركة تحتاج إلى معرفة وحسن تقدير.

العطش لا يناقض صدق الثقة

بعد كلمة الثقة نفذ الماء وعطشت الأم وعطش الطفل. هذه الجملة وحدها تصح تصورًا شائعًا: أن اليقين يمنع ظهور الحاجة أو يحول دون الألم. ثبت يقينها، ثم وقعت الشدة التي يرويها الخبر. لذلك لا يصح أن يواجه الإنسان كل تجدد للتعب بالسؤال القاسي: ماذا ينقص إيماني حتى أشعر بهذا؟ قد تكون حاجته حقيقية تحتاج إلى سبب، وقد يكون حزنه طبيعيًا يحتاج إلى رفق، مع سلامة أصل إيمانه.

في الحياة اليومية يمكن أن تثق بالله وأنت تجمع أوراقًا لخدمة تحتاج إليها، أو تبحث عن عمل، أو تعتني بمرضى. وقد يشد عليك يوم من الأيام فتحتاج إلى من يساعدك. لا يجعل هذا طلبك السابق للدعاء كذبًا، ولا يلزمك أن تؤدي أمام الناس صورة مستمرة من الهدوء. وصف الحاجة بصدق يعين على معالجتها؛ أما إخفاؤها لئلا تتهم في يقينك فقد يحرملك عونًا متاحًا.

ومن يرافق محتاجًا يتعلم أن يفرق بين تذكيره بالله وبين مطالبته بإنكار حاجته. قل له ما تستطيع فعله، واسأله عما ينفعه، ولا تجعل كل خبر عن ألم فرصة لتصحيح عبارته قبل فهم حاله. ربما كان أصدق ما تقدمه في تلك الساعة ماء أو طعامًا أو اتصالًا أو رفقة تحفظ له قدرته على مواصلة يومه.

الحركة في حدود ما تراه

صعدت أم إسماعيل لتنظر، ثم انتقلت إلى الموضع الآخر، وكررت السعي. لم تكن تعلم أين سيظهر الماء، لكنها كانت تعرف أنها تبحث عن غوث. يستطيع الإنسان أن يعمل على السبب الذي يراه من غير أن يمتلك خريطة الفرج كلها. وهذا معنى دقيق في أوقات الضيق؛ فكثير من الناس يؤخرون أي

خطوة لأنهم لا يملكون حلًا كاملاً، مع أن الخطوة الصغيرة قد تكون واجب الوقت أو سبباً لمعرفة ما بعدها.

من ضاق عليه باب العمل لا يملك أن يضمن قبوله في مكان، لكنه يستطيع أن يراجع سيرته ويعرف المهارة المطلوبة ويسأل عن فرصة معلومة. ومن تغير سكنه لا يملك أن يشعر بالآلفة فوراً، لكنه يستطيع أن يتعرف إلى ما يلزمه من شؤون المكان وأن يبني صلة مأمونة. ومن أثقلته مسؤولية رعاية لا يملك أن يزيل سببها، لكنه يستطيع أن يطلب توزيع بعض المهام. هذه صور تقريبية للسعي، وليست وعوداً بنتائج مخصوصة.

ولا يعني تكرار السعي تكرار الوسيلة نفسها إلى غير نهاية مع ظهور عجزها. ننظر في أحوالنا بما تعلمناه من خبرة ونصح، ونعدل ما يحتاج إلى تعديل. أفعال المناسك لها أحكامها الشرعية، أما تنظيم البحث عن عمل أو عون فوسائل تتغير. فلا نستخرج من عدد السعي في الخبر عدد محاولات يلزم كل صاحب حاجة، ولا نخترع به وصفة لبلوغ الفرج.

حين يأتي العون من جهة لم تتوقعها

لم يظهر الماء في الموضع الذي كانت تبحث فيه بالطريقة التي تخيلها قارئ عادي للقصة، بل كان ما أخبر به النص من حضور الملك وظهور زمزم. نؤمن بالخبر كما جاء، ونحمد الله على قدرته ورحمته، ولا ندعي أن لكل محتاج علامة خارقة سيعرف بها نهاية انتظاره. لله من الأسباب ما نعلم وما لا نعلم، والعبد مكلف بما استطاع من العمل المشروع، لا بانتظار خرق العادة.

وقد يأتي العون في واقع الناس على صورة بسيطة لا تشبه الصورة التي تمنوها: شخص يشرح إجراءً، أو قريب يحمل جزءاً من المهمة، أو عمل أقل مما خططوا لكنه يفتح باباً نافعاً. من استغرق في شكل واحد للفرج قد يعرض عن عون حاضر لأنه لا يشبه حلمه. تأمل ما جاءك بعقل وشكر، وانظر هل هو مباح ونافع، ولا تحتقره لأنه لا يحل كل شيء.

وفي الوقت نفسه لا تلزم نفسك بقبول كل عرض بوصفه رسالة غيبية. للعون حدود، وللمعاملات شروط، وللناس مقاصد متنوعة. تحقق مما يعرض عليك، واحفظ حقك وحق غيرك، واستشر عند الحاجة. تستطيع أن تشكر من عرض

المساعدة وأن تعتذر عن صورة لا تناسبك، من غير أن يكون الاعتذار جحودًا لفضل الله.

من النجاة إلى بناء الحياة

بعد ظهور الماء جاء قوم جرهم وطلبوا الإذن بالنزول، فكان اتفاق يحفظ حقها في الماء. ثم نشأت حياة وجيرة وتعلم وعمل. هذه بقية مهمة من الخبر؛ فالمؤمن لا يقف عند لحظة النجاة كأنها نهاية كل مسؤولية. النعمة الجديدة تحتاج إلى حفظ وتدبير وعدل، والمساعدة الطارئة قد يتبعها تنظيم يبقي نفعها ويمنع النزاع عليها.

من سدده عنه دين أو وجد سكتًا أو عادت إليه قدرة يحتاج بعد ذلك إلى بناء حياة تناسب ما تيسر. يراجع ما تعلم، ويبين ما بقي من التزام، ويستعمل النعمة في وجه نافع. لا يشترط أن يتحول فورًا إلى خبير يعلم غيره، ولا أن يجعل تجربته معيارًا يحاكم به من لم يخرج بعد من ضيقه. يكفيه أن يستقبل فضل الله بالشكر وأداء الحق، ثم يعين بما يقدر عليه.

ولمن يساعد الناس دور في هذه المرحلة أيضًا. قد ينتهي الإعلان عن الحاجة وتبقى تفاصيل عملية تعوق صاحبها، كإجراء لم يفهمه أو مسؤولية لم يعرف كيف يرتبها. إن قدرت

على مساعدة تحترم استقلاله فافعل، وإن انتهى دورك فبين ذلك بوضوح. لا تعد بعناية دائمة ثم تختفي لأن لحظة التأثير انتهت، ولا تجعل مساعدتك الأولى سببًا للتحكم في كل خياراته اللاحقة.

ما نحفظه من الخصوصية وما نتعلمه من المعنى

في بقية الخبر تفاصيل تتعلق ببيت إسماعيل وزواجه وزيارة إبراهيم، ثم بناء البيت. نقلنا الخبر متصلًا حفظًا على سياقه، وليس كل تفصيل فيه حكمًا يستقل القارئ بتنزيله على أسر الناس. مسائل طاعة الوالدين والفراق والحقوق الزوجية لها أدلتها وتفصيلها؛ لا يقتطع شخص كلمة عن عتبة الباب ليحسم نزاعًا لم يعرفه أو ليطالب بترك حق ثابت.

والذي يتصل بمقصدنا في آخر الخبر أن البناء الكبير صحبه دعاء بالقبول. اشتغل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بما أمرا به، وسألا الله القبول. العمل الذي تراه العين لا يغني عن حاجة القلب إلى الله، كما أن حاجة القلب لا تلغي حمل الحجارة وبذل الجهد. هذه الصحبة بين الدعاء والفعل تصل أول الخبر بآخره، وترد القارئ إلى معنى يتكرر في حياته من غير أن يدعي لنفسه خصوصية الأنبياء.

قد تبدأ يومك بحاجة ملحة، ثم ينتهي بعمل صغير استطعت أداءه، ولا ترى تمام الفرج الذي ترجوه. احفظ العمل الصالح، واسأل الله العون والقبول، واعتن بمن جعلهم في رعايتك. لا تحتاج إلى معرفة آخر القصة لتكون الخطوة الحاضرة صحيحة. وما قصه الله ورسوله علينا يثبتنا على ما علمنا من الهدى، ويعلمنا أن منتهى علمنا ليس منتهى رحمة الله.

الفصل الثاني والعشرون

حين تترك المكان الذي ألفته

الغربة ليست انتقال جسد فحسب. قد يفقد الإنسان معها وجوهاً يعرفها، ولغة يسهل عليه الكلام بها، ومسجدًا اعتاد طريقه، وعملاً كان يفهم تفاصيله. وبعض الناس يختار الانتقال لعلم أو رزق، وبعضهم تدفعه ظروف لا يملكها. تختلف الأحوال والأحكام، لكن السؤال الذي يجمع كثيرًا منها هو كيف يحفظ الإنسان دينه وحقوقه ورجاءه حين لا يستطيع أن يبقي حياته على صورتها الأولى.

وفي خبر هجرة النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه من معاني الإيمان والأخذ بالأسباب ما ينفع القارئ، مع حفظ منزلة النبوة وخصوصية الهجرة. تروي عائشة رضي الله عنها مقدمات من حياة أبيها، ثم الاستعداد للخروج وما اتصل به من ترتيب الصحبة والطعام والخبر والطريق. هذا الجزء من الخبر هو الرواية المثبتة هنا؛ لا نضيف إليه تفاصيل لم ترد فيه لمجرد اشتهاؤها في الحكايات.

أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي ﷺ قالت لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة. فقال أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. قال ابن الدغنة فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك.

فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج، أخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا

لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذ عليه نساء المشركين وأبنائهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم.

فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجدا بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فأنه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلى ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل. والنبي ﷺ يومئذ بمكة، فقال النبي ﷺ للمسلمين "إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين". وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له

رسول الله ﷺ " على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي ". فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت قال " نعم ". فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر .

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة فبينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر " أخرج من عندك ". فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال " فإني قد أذن لي في الخروج ". فقال أبو بكر الصحابة بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ " نعم " .

قال أبو بكر فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين. قال رسول الله ﷺ " بالثمن " .

قالت عائشة فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث

ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبأت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.^{٣٢}

٣٢ البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث ٣٩٠٥، عن عائشة رضي الله عنها. والكل: العاجز الذي يحتاج إلى معونة؛ والخريت: الماهر بالطريق؛ والرسل: اللبن.

لا تختصر الشخص في كونه غريبًا

شهد ابن الدغنة لأبي بكر بما عرف من إحسانه إلى الناس، وذكر صلة الرحم وحمل الكل وإكرام الضيف والإعانة على نوائب الحق. كان الذي يطلب الخروج إنسانًا له تاريخ من النفع، لا مجرد اسم في خبر انتقال. وفي استقبال من يأتي إلى مكان جديد أدب قريب من هذا المعنى: تذكر أن القادم يحمل علمًا ومهارة وصلات وتجارب، وإن احتاج الآن إلى شرح أمر بسيط لا تعرف أنت كيف تجهله.

قد يكون الرجل خبيرًا في مهنته ثم يعجز عن فهم إجراء محلي، وقد تكون المرأة قادرة على إدارة بيتها ثم تحتاج إلى عون في اللغة، وقد يكون الطالب مجتهدًا لكنه لم يعرف بعد نظام دراسته. لا تجعل حاجته الجزئية حكمًا على قدرته كلها. أعنه فيما يحتاج، واترك له مساحة أن يتعلم ويعمل ويشارك، بدل أن تثبته في دور المتلقي الذي لا يعرف شيئًا.

ومن انتقل نفسه يحتاج إلى هذه النظرة. قد يتألم لأنه صار يسأل فيما كان غيره يسأله، لكن السؤال عن الجديد ليس سقوطًا لما تعلمه. احتفظ بكرامتك من غير تكبر عن التعلم، واسمح لنفسك أن تبدأ في بعض الأمور مبتدئًا. المعرفة تنمو

في مواضعها، ولا يلزم أن تملك خريطة المكان في أسبوعك الأول كي تكون أهلاً للاحترام.

الإعداد الذي يسبق الإذن

حبس أبو بكر نفسه لصحبة النبي ﷺ، واعتنى بالراحتين، ثم جاء وقت الخروج فجهز أهل البيت الطعام. في الخبر انتظار له عمل، واستعداد مناسب للمرحلة، ومعلومة محددة تغير بعدها الفعل. وليس الانتظار كله فراغاً، كما أن الاستعداد لا يعني أن الإنسان يملك موعد كل ما يرجوه. يهيئ ما يستطيع من سبب، ثم يتصرف حين يتبين ما يشرع له فعله.

في انتقالات الناس المعاصرة قد تكون الأوراق واللغة ومعرفة المسكن والعمل وحفظ الحقوق أجزاء من الإعداد. يتعلم المرء ما يحتاج إليه من جهاته المختصة، ولا يبني قراره على حكاية شخص واحد نجح قبله. والحديث هنا عن أمانة الإعداد عموماً؛ أما أحكام الإقامة والعمل والإجراءات المتغيرة فتؤخذ من مصادرها الصحيحة، ولا يجعلها هذا الكتاب قائمة تصلح لكل بلد وزمن.

وقد يختلف أفراد الأسرة في مقدار استعدادهم النفسي. من حصل على عمل قد يرى الانتقال بداية مفرحة، بينما يرى

طفل أو والد كبير أنه فقد محيطه المعروف. لا يلزم أن تكون المشاعر متطابقة كي يكون القرار صالحًا. الذي يلزم من حسن العشرة أن يسمع كل واحد بحسب قدرته، وأن يعطى من البيان والعون ما يعينه على فهم ما تغير، وألا يعاقب على حنينه إلى ما ترك.

الصحة التي تعرف وظيفتها

في الرواية أعمال متعددة: إعداد الطعام، ونقل الخبر، والعناية بالغنم، والدلالة على الطريق. لم يكن كل من أعان يفعل العمل نفسه، ولا كانت قيمة المعونة محصورة في الظهور بجوار المسافر. وهذا يوسع نظرنا إلى التعاون؛ فقد يكون من أهم ما تقدمه لشخص في انتقاله أن تنجز شأنًا بقي خلفه، أو تحفظ له أمانة، أو تعرفه بمن يستطيع مساعدته فيما لا تعرفه أنت. وحسن الصحة يحتاج إلى تحديد ما يقدر عليه كل واحد. قد تقول سأساعدك في أول أسبوع في فهم الطريق والخدمات، أو أستطيع مراجعة هذه الرسالة معك، أو أبقى على اتصال في وقت معلوم. الوعد المحدد أنفع غالبًا من عبارة واسعة توحى برعاية لا تملكها. ومن تلقى العون يشكر ويبين حاجته

بوضوح، ولا يحمل شخصًا واحدًا كل ما ينقصه لأن هذا الشخص كان أول من أحسن إليه.

وللصحبة حق في حفظ السر. الانتقال قد يضع في يد المعين أوراقًا وعناوين ومعلومات أسرية، وليس مجرد اطلاعه عليها إذنًا باستعمالها خارج الحاجة. تعلم أن يكون عونك أمينًا؛ لا تروي تفاصيل ضعف من ساعدته في مجلس، ولا تجعل معرفتك بأزمته أداة لتذكيره بفضلك. الكرامة التي تحفظها في الخفاء جزء من حقيقة الخدمة.

الخبرة لا تستغني عن الأمانة

استأجر النبي ﷺ وأبو بكر دليلاً ماهراً بالطريق، وائتمناه على الراحلتين ووقت اللقاء. اجتمعت في المهمة معرفة يحتاجان إليها وثقة في أداء الأمانة. يستفيد القارئ أن الكفاءة ليست زينة ثانوية في العمل؛ من لا يعرف الطريق لا يصبح دليلاً صالحاً بمجرد صدق نيته، ومن يعرفه ويخون ليس مأموناً لمجرد مهارته. كل مهمة تحتاج إلى النظر في أهليتها وحققها. إذا احتجت إلى ترجمة أو تعليم أو إرشاد في شأن جديد، فابحث عن من يعرف المجال ويبين حدود دوره. قد يحبك قريب لكنه لا يملك المعلومة، وقد يعرف شخص بعض

التفاصيل دون بقيتها. اشكر المحبة، وخذ الخبرة من موضعها، ولا تلزم إنساناً بأن يفتي أو يتصرف فيما لا يعلم كي يثبت وقوفه معك.

وهذه القراءة لا تحول واقعة الاستئجار في السيرة إلى جواب مختصر عن كل علاقة في كل ظرف؛ للأحكام تفصيلها. لكنها تذكرنا بأن التوكل الذي نقرأه في السيرة لم يكن إهمالاً للمهارة أو للمواعيد أو لترتيب الطريق. ومن الخطأ أن نصوغ للناس صورة من التدين تستصغر هذه الأسباب ثم تطلب منهم أن يدفعوا كلفة إهمالها.

الحنين الذي لا يعطل البناء

ربما وجدت في المكان الجديد خيرًا، ثم اشتقت إلى القديم فشعرت بتناقض. وليس كل اشتياق اعتراضًا على ما تيسر لك؛ قد تحب الوجوه التي تركتها وتشكر النعمة التي وصلت إليها معًا. لا يحتاج القلب إلى محو ذاكرته حتى يبني صلة جديدة. يستطيع أن يحفظ ما كان وأن يتعلم ما صار، مع الوقت والرفق والمساعدة المناسبة.

وقد تنفع عادات صغيرة في تثبيت اليوم: وقت عبادة معروف، واتصال بالأهل في حد لا يبتلع بقية المسؤوليات،

ومعرفة من يستطيع أن يعينك، وتعلم منتظم لما تحتاج إليه. هذه وسائل اختيارية تختلف باختلاف الناس؛ لا نقول إنها تعالج كل حزن أو تغني عن مساعدة متخصصة إذا اشتد الأثر على الحياة. المقصود أن يكون البناء ممكنًا بخطوات، لا مشروعًا ينتظر زوال كل شوق.

ومن بقي في البلد القديم يحتاج إلى أدب أيضًا. لا تجعل كل اتصال بالقادم امتحانًا لوفائه: لماذا تغير صوتك، ولماذا فرحت هناك، ولماذا لم تتصل كما كنت؟ قد يكون يحمل مسؤوليات جديدة لا تراها. قل له إنك تشاق إليه، واتفقا على ما تستطيعانه، ولا تجعل الحب ديبًا لا يستطيع وفاءه إلا بالشعور المستمر بالذنب.

الأمانة التي تسافر معك

قد تتغير اللغة والمهنة والعنوان، لكن الصدق وأداء الحقوق يرافقان الإنسان. لا تصبح المبالغة في الخبر مباحة لأنك تحتاج إلى قبول، ولا يصير مال أحد قليل الحرمة لأنك ستغادر قريبًا. ومن أهم ما يحفظ الرجاء في أوقات الانتقال أن يظل المرء قادرًا على أن يقول إنه حاول بناء حياته بعمل مشروع وبيان صادق.

إذا بقيت عليك حقوق في المكان الأول، فابحث عن طريقة وفائها أو ترتيبها مع أصحابها. وإذا استعنت بأحد في الجديد فافهم ما اتفقتما عليه. وقد تحتاج في بعض التفاصيل إلى أهل العلم أو الجهات المختصة بحسب نوعها؛ حسن النية لا يغني عن معرفة ما التزمت به. الوضوح قبل الفعل أخف غالباً من النزاع بعده، وأداء الأمانة من أسباب طمأنينة لا توفرها العبارات العامة وحدها.

ويستطيع من يستقبل الغريب أن يخفف عنه بما هو أوضح من الموعظة المجردة: يشرح لفظاً لم يفهمه، أو يدلّه على مصدر صحيح، أو يمنحه وقتاً ليسأل. وقد يكون هذا الفعل الصغير سبباً في أن يشعر أن الحياة الجديدة قابلة للفهم. لا نعلم كل أثر لما نفعل، لكننا نعرف أن الرفق والصدق وأداء الحق أبواب خير.

طريق جديد وقلب يعرف قبلته

لا يقتضي الانتفاع بالسيرة أن تجعل انتقالك نظيراً للهجرة النبوية في فضله أو حكمه. إنما تقرأ هدي النبي ﷺ فتتعلم ما يوجه عملك بحسب حالك. تنتفع بحسن الاستعداد، وبالصحبة، وبحفظ الأمانة، وبمعرفة أنك محتاج إلى الله حين

تعرف الطريق وحين تجهله. وتدع لكل مقام منزلته التي
ثبتت له.

قد يستغرق بناء حياة جديدة وقتًا أطول مما توقعت. اطلب
العون المشروع، وتعلم ما ينقصك، واعترف بما أنجزته دون
مبالغة، واحفظ صلاتك وحقوقك بحسب ما تعلم من حكمها.
إذا لم يصبح المكان مألوفًا سريعًا، فهذا وصف للمرحلة لا حكم
على قيمة حياتك. يبقى لك في كل يوم عمل تستطيع أن
تقصد به وجه الله، وصلة تحفظها، وكلمة صدق تقولها.

وحين تجد من يأتي بعدك محتاجًا إلى ما احتجت إليه، تذكر
بطء الخطوات الأولى. لا تسخر ممن لم يتعلم بعد، ولا تتخذ
تجاوزك لبعض الصعوبات دليلًا على أن كل من بقي فيها
مقصر. قد تختلف أسباب الناس اختلافًا كبيرًا. أعنه بما تقدر،
ودله على ما تعلم، واترك له حق أن يبني قصته على مهل،
راجيًا فضل ربه كما رجوت.

الفصل الثالث والعشرون

المسؤولية حين يتسع البلاء إلى الناس

تختلف المحنة العامة عن الهم الفردي في أن أثر القرار يتجاوز صاحبه. قد يهون الإنسان على نفسه احتمالاً من الضرر، لكنه لا يملك أن يحمل الآخرين الاحتمال نفسه دون حق. وقد يحب أن يظهر قوياً، بينما تحتاج الجماعة إلى معلومة صحيحة وتدبير متزن. ولهذا يكون الحديث عن التوكل في الأزمات محتاجاً إلى أمانة أشد: أمانة في الخبر، وفي استعمال السبب، وفي وصف ما نعلم وما نجهل.

وفي خبر عمر رضي الله عنه حين بلغه وقوع الوباء بالشام مثال واضح لاجتماع الشورى والأخذ بالسبب والإيمان بالقدر، ثم الرجوع إلى الخبر النبوي حين بلغه. نقرأه بوصفه أصلاً في فهم هذا الاجتماع، دون أن نجعله بديلاً عن المختصين في تقدير أخطار صحية معاصرة أو تحديد إجراءاتها.

عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض

الشأم. قال ابن عباس فقال عمر ادع لي المهاجرين الأولين. فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم فاختلفوا. فقال بعضهم قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. فقال ارتفعوا عني. ثم قال ادعوا لي الأنصار. فدعوتهم فاستشارهم، فسلخوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال ارتفعوا عني. ثم قال ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح. فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنأى عمر في الناس، إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه.

قال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله فقال عمر لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيته بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيته بقدر الله قال فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبا في بعض حاجته فقال إن عندي في هذا علما سمعت رسول الله ﷺ يقول " إذا سمعتم به بأرض فلا

تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه
". قال فحمد الله عمر ثم انصرف.^{٣٣}

الاحتياط داخل القدر

رد عمر رضي الله عنه السؤال إلى حقيقة شاملة: الانتقال من
سبب إلى سبب لا يخرج عن قدر الله. وضرب مثل المرعى
الخصيب والجذب ليبين أن اختيار ما ينفع فعل يقع بقدر الله
أيضًا. لا يحتاج المؤمن إلى ترك السبب حتى يثبت إيمانه
بالقدر؛ فالسبب والقدرة على أخذه وما يترتب عليه كل ذلك
في ملك الله وعلمه.

هذا الفهم يزيل خصومة مصطنعة قد تقع في كلام الناس.
يقول أحدهم إما أن تثق وإما أن تحتاط، كأن الثقة لا تسع
تعلم ما يدفع الضرر. لكن من يطلب مأوى من مطر، أو يتأكد
من سلامة طريق، أو يسأل المختص عن خطر لا يعلن
استقلاله عن ربه. وقد يكون أداء السبب واجبًا إذا تعلق بحق
يجب حفظه. أما نوع الاحتياط ومقداره فيعرف بحسب
الواقعة، لا بحسب قوة العبارة التي يرددها صاحبها.

٣٣ البخاري، الصحيح، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، حديث ٥٧٢٩، عن ابن
عباس رضي الله عنهما. وسرغ: موضع في طريق الشام؛ وعدوتا الوادي: جانباه.

ويحتاج الأمر إلى توازن؛ فليس كل تصور مخيف دليلاً على خطر قائم. قد يتكاثر الخبر المجهول حتى يعجز الإنسان عن أي حركة، أو يضاعف إجراءً بلا علم حتى يضر بمن حوله. الذي يعين هنا هو الرجوع إلى معلومات موثوقة وأهل اختصاص ومسؤولية معلومة. العلم بالقدر لا يبرر الإهمال، والخوف لا يمنح كل شائعة صفة الحقيقة.

اختلاف الرأي قبل ظهور البيان

استشار عمر المهاجرين والأنصار ومشیخة قريش، ووقعت آراء مختلفة. تحفظ الرواية هذا الاختلاف دون أن تجعله دليلاً على فساد نيات أصحابه. بعضهم نظر إلى الأمر الذي خرجوا له، وبعضهم نظر إلى خطر إدخال الناس إلى أرض الوباء. نحتاج في حياتنا إلى هذا الأدب حين تتوزع المعلومات ويتفاوت تقدير المخاطر؛ قد يخطئ الرأي مع صدق صاحبه، وقد يحتاج القرار إلى جمع ما عند أكثر من شخص.

في بيت أو مؤسسة صغيرة قد يختلف الناس في طريقة معالجة أزمة مالية أو تعطل خدمة. ابدأوا بتحديد ما اتفقت عليه من واقع، ثم ما يحتاج إلى تحقق، ثم ما يملكه كل واحد

من مسؤولية. لا تختصروا الخلاف في شجاع وجبان أو متوكل وضعيف الإيمان. هذه الأوصاف قد تعطل سماع معلومة نافعة وتجعل الدفاع عن الصورة أهم من حفظ الحقوق.

ولا تعني الشورى أن كل رأي متساو في مجال يحتاج إلى اختصاص. يسمع من له خبرة في مجاله، ويعرف من له حق القرار، ويراعى من سيتحمل أثره. إذا سئلت عن أمر لا تعرفه فقل لا أعلم أو دل على من يعلم. الجرأة في الأزمة قد تعجب السامع لحظة، لكن المعلومة غير الصحيحة تحمل كلفة يدفعها من اعتمد عليها.

المعلومة التي تصل متأخرة

جاء عبد الرحمن بن عوف بالحديث بعد أن استشار عمر وعزم على الرجوع. فحمد الله وانصرف. قد تصل إلى الإنسان معلومة مؤثرة بعد وقت من البحث، والمطلوب أن يستقبلها بحسب وزنها، لا أن يرفضها لأنها لم تكن جزءاً من رأيه الأول. الرجوع إلى البيان يزيد القرار قوة إذا ثبت، ولا يضعف صاحبه لمجرد أنه تعلم من غيره.

وفي المقابل ينبغي أن يميز بين معلومة موثقة وبين كلام جديد فقط. كثرة المستجدات ليست فضيلة إن كانت تكرر الشائعة أو تنقلها بلهجة أشد. قبل نشر توجيه يؤثر في الناس، تحقق من مصدره وتاريخه ومجال انطباقه. وإذا تغير التوجيه بسبب معرفة جديدة، فبيّن ما تغير بقدر ما تعلم، ولا تجعل كل تحديث مؤامرة ولا كل قديم باطلاً على الإطلاق. هذا الكتاب لا يقرر بروتوكولات صحية ولا إرشادات طوارئ؛ فالوقائع المتغيرة لها جهاتها المختصة ومصادرها المعتمدة. الذي يقرره في موضعه هو أن الإيمان لا يعفي من أمانة التعلم، وأن نسبة أمر إلى الدين أو إلى العلم تحتاج إلى معرفة. ومن حفظ لسانه عما لا يعلم فقد أدى جزءاً مهماً من مسؤوليته العامة.

من يتحمل أثر القرار

من أبرز ما في المشاورة تذكر وجود الناس وأصحاب رسول الله ﷺ مع عمر. القرار ليس تجربة تخص فرداً معزولاً. يذكر هذا كل من يدير شأنًا مشتركًا أن ينظر إلى الأضعف قدرة على الاحتمال، وإلى من لا يستطيع اختيار بديل، وإلى من ستصل إليه تبعات لم يحضر النقاش فيها. قد يكون القرار مريحاً

لصاحبه لأنه لا يدفع كلفته بنفسه، بينما يثقل على من
يعتمدون عليه.

في مثال افتراضي، تنوي مجموعة تطوعية تقديم خدمة
أثناء ظرف مضطرب. يستطيع بعض أفرادها المشاركة
بسهولة، ويحتاج آخرون إلى رعاية أهلهم أو إلى ترتيب
خاص. لا يجعلون الحماسة معيارًا وحيدًا للقبول، بل يحددون
المهام والقدرات وما يلزم من سلامة ومعرفة. ويمكن لمن
تعذر حضوره أن يقدم عملاً آخر إن استطاع، أو أن يعتذر
بكرامة. خدمة الناس لا تبدأ بإجبار المتطوع على وعد لا يقدر
عليه.

ومن أمانة القيادة كذلك بيان حدود الخطة. إذا كانت الموارد
تكفي عددًا معينًا فلا يوعد الجميع، وإذا كان الوقت تقديرًا
فلا يعلن كأنه يقين، وإذا احتاج تنفيذ أمر إلى موافقة أو
اختصاص فلا يتجاوزه الفريق بحسن النية. الرجاء يعين على
بذل الوسع، والصدق يبين مقدار هذا الوسع للناس.

الرحمة التي لا تكتفي بالشعارات

في الأزمات يكثر تداول الدعاء والكلام عن التضامن. وهذا
خير إذا صاحبه صدق، لكن الحاجة قد تكون محددة جدًا:

طعامًا يصل، أو معلومة مفهومة، أو رعاية ساعة، أو تصحيح خبر أضر بأسرة. انظر إلى ما تستطيع أن تفعله فعلاً، ولا تحتقره لأنه لا يوازي حجم الأزمة كلها. لا يكلف الفرد بإزالة كل ألم في العالم حتى يصح منه إحسان قريب.

وقد يكون من الرحمة ألا تضيف إلى المتألم عبئًا جديدًا. لا تطلب منه شهادة مصورة على كل عون، ولا تلزمه أن يحكي القصة مرات ليثبت أنه يستحق. الجهات المسؤولة قد تحتاج إلى تحقق يحفظ الحقوق، لكن التحقق يقدر بقدره ويحفظ الخصوصية، ولا يتحول إلى استعراض لمعاناة الناس. وكلما كان موضع الخدمة أوضح، قل الاحتياج إلى الكلام الذي يرفع صورة الخادم ويترك حاجة المخدم.

ولا تستعمل الأزمة لتقسيم المصابين بحسب ما تتخيله عن صلاحهم. لا تعلم سبب كل ما نزل بكل فرد، ولا تملك أن تصدر حكمًا غيبياً من مشهد عام. تذكر نفسك وغيرك بالتوبة والعمل الصالح على وجه مشروع، وأعط المحتاج حقه في العون، ودع ما استأثر الله بعلمه له. الرحمة والعدل لا ينتظران منك أن تفسر الغيب قبل أن تمد يدك.

بعد انقضاء الخبر العاجل

قد ينخفض اهتمام الناس بالأزمة بينما تبقى آثارها في بيوت بعينها. تبدأ حينئذ مسؤولية مختلفة: التعلم من القصور، وإتمام الالتزامات، ورد الأمانات، وحفظ ما يلزم من سجلات، وإتاحة الراحة لمن عمل طويلاً. لا يصبح الفريق ناجحاً لمجرد كثرة ما نشر، ولا يفشل كله لأن ثغرة ظهرت فيه. يراجع بصدق ويصحح بقدر ما يعلم، ويستعين بمن يكمل نقصه. ولمن تضرر حق في أن يستعيد حياته دون أن يظل محبوساً في صورة المصاب. إذا استطاع العمل أعين عليه، وإذا احتاج إلى عون مستمر لم يلم لأن الآخرين تجاوزوا الخبر. تختلف سرعة التعافي وإعادة البناء، كما تختلف الخسائر والموارد. المقارنة السريعة قد تظلم أشخاصاً لا تعرف ما حملوه في الخفاء.

يبقى من الخبر أصل يصحبنا في كل أزمة: نرجو الله، ونتعلم، ونتشاور، ونحفظ الحقوق، ونقبل البيان إذا جاء. لسنا مخيرين بين قلب مؤمن وعمل مسؤول؛ الإيمان الذي صح فهمه يحملنا على أن نكون أصدق وأرفق وأشد أمانة فيما استطعنا.

الفصل الرابع والعشرون

كيف تكون قريباً ممن اشتد عليه يومه

لا ينتظر المتألم دائماً من يجمع له تفسير الحياة. قد يحتاج إلى من يبقى قريباً وهو لا يملك تفسيراً، وإلى من يسمع الجملة الناقصة فلا يكملها باتهام، وإلى من ينجز معه أمراً بسيطاً أثقله التعب. والمواساة من الموضع التي يظهر فيها أثر حسن الظن بالله على معاملتنا للخلق؛ فمن علم سعة رحمته استحيا أن يغلقها بكلمة قاسية في وجه محتاج، ومن علم حكمته أمسك عن ادعاء العلم بسبب كل مصيبة.

وقد مر في هذا المجلد خبر بكاء النبي ﷺ على ابنه، وخبر عائشة في الإفك، وكلام يعقوب عليه السلام في بث حزنه إلى الله. هذه النصوص تفتح قلب المواسي للإنسان كما هو: مؤمن قد يبكي، وصادق قد يتعب، ومظلوم قد يحتاج إلى بيان وعون. فلا يبدأ مواساته بمطالبة صاحب الألم أن يكون نسخة من الصورة التي تخيلها هو عن الصبر.

قبل أن تختار العبارة

أسأل نفسك عمّا تعرف من الحال. هل فقد هذا الشخص عزيزًا، أم ينتظر خبرًا، أم يواجه حقًا ضائعًا، أم يحمل مسؤولية طويلة؟ تختلف الحاجة باختلاف السبب والوقت والعلاقة. عبارة تصلح بعد أيام من الاستقرار قد تثقل في أول ساعة، وسؤال يستطيع الصديق القريب طرحه قد لا يليق بمن لا يعرف صاحب الحال. حسن المقصد لا يغني عن ملاحظة المقام.

ويمكن أن تبدأ بما هو أصدق وأخف: إظهار التعاطف، والدعاء بخير، وعرض مساعدة محددة تستطيعها. لا تحتاج إلى أن تبحث عن تعبير لم يقله أحد من قبل. قد يكون الكلام المألوف إذا صدر برفق في وقته أنفع من تشبيه مبتكر يحمل معنى لم تقصده. انتبه إلى استجابة من أمامك، وأفسح له أن يسكت أو يغير الموضوع أو يعتذر عن الحديث.

أما إن كان في خطر حاضر يحتاج إلى إنقاذ أو حماية، فتقدم المساعدة العاجلة المناسبة على الحديث الطويل. المواساة لا تستبدل الإجراء اللازم، كما أن الإجراء لا يمنع الرفق في أدائه. ولكل خطر جهاته المختصة بحسب مكانه وحاله؛ لا يجعل

هذا الفصل القارئ بديلاً عن أهل الخبرة، بل يعينه على ألا يؤخر طلبهم بحثًا عن عبارة تطمئن الجميع.

الاستماع الذي لا يستولي على القصة

قد تسمع من المتألم جزءًا من خبره، فتتذكر تجربة لك وتشعر برغبة في حكايتها كلها. ربما نفعه بعض ما تعلمت، لكن انظر أولاً هل طلب ذلك وهل يحتمل سماعه الآن. المقصود من الاستماع أن يفهم هو أنه مسموع، لا أن ينتقل مركز المجلس سريعًا إلى قصة أشد ألمًا أو أسرع فرجًا عاشها غيره.

إذا ذكرت تجربتك فاجعلها بقدر نفعها، وبين أن الأحوال تختلف. لا تقل إن ما نفعك يجب أن ينفعه بالطريقة نفسها، ولا تجعل المدة التي تجاوزت فيها حزنك أجلًا تلزمه به. قد تتشابه عناوين المصائب وتختلف العلاقات والمسؤوليات والصحة والموارد اختلافًا كبيرًا. من الرفق أن تعطيه مساحة يكتشف فيها ما يحتاج إليه دون أن يخشى أنه يتأخر عن جدول وضعته له.

والاستماع لا يعني قبول كل تفسير يقوله المتألم في ساعة انفعاله. تستطيع أن تسمع ألمه دون أن تؤيد ظلمًا لآخر أو حكمًا لا دليل عليه. تقول ما يدل على فهمك للحزن، ثم تفصل

بينه وبين الادعاء الذي يحتاج إلى تثبيت. وإذا احتاجت مسألة إلى حكم أو اختصاص، دلت عليه بأدب، وحفظت أن تكون مواساتك صادقة لا وعدًا بكل ما يريد سماعه.

الزيارة التي تخفف العبء

قد تحمل الزيارة محبة، ثم تصبح على أهل البيت عملاً إضافيًا من استقبال وطعام وتكرار للخبر. انظر إلى الوقت الذي يناسبهم، والمدة التي يطيقونها، وما إذا كانت المساعدة العملية أولى من حضور طويل. من الجميل أن يصل دعمك من غير أن يحتاج المتألم إلى خدمتك ليقبله. تستطيع أن تعرض إحضار حاجة أو إنجاز مهمة أو ترك الطعام في وقت مناسب بعد اتفاق.

ولا يملك كل أحد مالاً أو وقتاً واسعاً. قد تكون مساعدتك اتصالاً قصيراً أو متابعة أمر أو دعاء وذكرًا بخير. قل ما تستطيع من غير وعد يرهقك ثم تخلفه. والأفضل أن تجعل العرض محدداً يمكن قبوله أو رفضه؛ من أثقله يومه قد لا يملك طاقة ليصمم لك مهمة مناسبة حين تقول له اطلب أي شيء.

واحفظ حقه في الرفض. ربما كان قد وجد من يعينه، أو احتاج إلى الخصوصية، أو لم يناسبه عرضك. لا تجعل اعتذاره حكمًا على محبته لك ولا تطلب منه تبريرًا طويلًا. تستطيع أن تبقى قريبًا بكلمة لطيفة ثم تترك له المساحة التي طلبها. المعونة التي تصر على فرض نفسها قد تنقل العبء من الحاجة الأولى إلى إدارة مشاعر المعين.

ما لا نعرفه عن حكمة المصيبة

من أكثر ما يثقل المواساة أن يعين المتحدث سببًا غيبياً لما وقع. يقول إن الله فعل بك هذا ليمنعك من شيء بعينه، أو لأنك لم تشكر نعمة معينة، أو ليهيئ لك خبراً سيأتي في موعد معلوم. قد يقصد التسلية، لكنه يتكلم فيما لا يعلم، وربما زاد صاحب المصيبة حيرة إذا لم يقع ما وعده به.

لدينا نصوص عامة في الابتلاء والثواب والتكفير والتوبة والحكمة، نؤمن بها ونذكرها على وجهها. أما تعيين مراد الله من كل واقعة لشخص بعينه فباب آخر. تستطيع أن ترجو له الخير، وأن تسأل الله أن يعوضه ويعافيه ويأجره، من غير أن تخبره بما لم يخبرك الله به. الدعاء رحيم وصادق، والوعد المخترع قد يبدو أدفاً لحظة لكنه لا يحتمل امتحان الأيام.

وإذا قال لك إنه لا يفهم ما جرى، فلا تلزمه بتفسير فوري ليصح إيمانه. في وسعه أن يؤمن بحكمة الله وعدله وهو لا يعرف الحكمة الخاصة في هذه الحادثة. وقد يجد بعد زمن معنى تعلمه منها، وقد يبقى بعض الألم بلا تفسير تفصيلي لديه. لا تتخذ غياب التفسير دليلاً على غياب المعنى عند الله، ولا تجعل حضور تفسير تحبه برهاناً على أنه مراده المعين.

الكلمات التي تفتح باب العمل

المواساة النافعة قد تساعد الشخص على الانتقال من عبء عام إلى حاجة محددة: ما الأمر الأقرب الذي يحتاج إلى عون اليوم؟ ربما لم يكن قادراً على التفكير في الشهر القادم، لكنه يستطيع أن يحدد موعداً أو طعاماً أو مكالمة. لا تقفز به إلى خطة شاملة قبل أن يفهم أن له حقاً في أن يبدأ من هذه النقطة الصغيرة.

وفي مثال افتراضي، يقول شخص يرعى والده إنه لم يعد يستطيع ترتيب كل المهام. يمكنك أن تسأله عن أكثر ساعة تثقل عليه، ثم تعرض حمل مهمة تستطيعها باتفاق واضح. لا تحتاج إلى أن تحكم أن حبه ضعيف لأنه تعب، ولا أن تعده بأن الأمر سيتحسن قريباً. مجرد توزيع مسؤولية حقيقية قد

يكون أبلغ أثرًا من نصيحة عامة تطالبه بمزيد من الصبر دون تغيير شيء.

وإذا لم تكن قادرًا على المساعدة المباشرة، فقد تدله على جهة مناسبة أو شخص مأمون مع احترام موافقته وخصوصيته. لا ترسل خبره إلى مجموعة كبيرة لأنك تريد الخير له، ولا تنشر حاجته دون إذن معتبر. بعض الأبواب يحتاج إلى تعريف قدر من الحال، فيقدر ذلك بقدره، وتبقى الأسرار التي لا تلزم محفوظة.

حين يتكرر الكلام نفسه

قد يعود المتألم إلى الخبر ذاته مرات. ليس كل تكرار رفضًا للنصيحة، وقد يكون طريقة يصف بها ما لا يزال ثقیلاً عليه. تستطيع أن تسمع بقدر قدرتك، وأن تقول بصدق متى تحتاج إلى التوقف أو متى يمكنك أن تعود للحديث. لا يلزمك أن تكون متاحًا في كل وقت حتى تكون رحيماً، لكن اللطف في بيان حدودك يحفظ العلاقة من جفاء مفاجئ.

وإذا رأيت أن الألم يعطل حياته على نحو يحتاج إلى مساعدة تتجاوز دورك، فاقتراح العون المناسب دون وصم. لا تشخصه من قراءة فصل، ولا تعده بأن نصيحة واحدة ستنتهي كل ما

يمر به. يمكنك أن ترافقه في طلب مساعدة مؤهلة إذا أراد، وأن تبقى قريبًا في حدودك. طلب العون لا يناقض اللجوء إلى الله، كما سبق في أبواب السعي والأسباب.

ومن الحكمة أن يوزع الدعم حيث أمكن على أكثر من شخص مأمون، باتفاق صاحب الحال. الاعتماد الكامل على فرد واحد قد يرهق الاثنين، وقد يترك فراغًا إذا انشغل. لكن التوزيع لا يعني تداول القصة بلا ضابط؛ يعرف كل معين ما يحتاجه لدوره، ويحفظ ما لا يحتاج إلى معرفته. هكذا تجتمع الرعاية والستر.

فرحه اللاحق لا ينقض حزنه السابق

قد ترى من واسيت يضحك بعد أيام أو يعود إلى بعض عمله، فلا تظن أن ألمه كان تمثيلاً. تتسع النفس للحزن والفرح في أوقات مختلفة، وقد تكون لحظة السعة عونًا على حمل ما بقي. لا تحرمه حقها بقول يذكره أنه ينبغي أن يبقى حزينًا حتى يثبت محبته لمن فقد أو جديّة ما مر به.

وقد يحدث العكس؛ يظن الناس أنه تجاوز المحنة لأنه عاد إلى العمل، ثم يشتد عليه يوم فيتعجبون. العودة إلى بعض الوظائف لا تعني أن كل الأثر انتهى. أسأله عما يحتاج إليه في

الحال، وابتعد عن الامتحان الذي يطالبه بأن يسير في خط مستقيم لا يتغير. ليس عندنا جدول واحد يصلح لقلوب الناس وتجاربهم.

ويحتاج من واسى إلى أن يفرح باستقلال صاحبه عنه. إذا قل طلبه للعون لأنه استعاد قدرة، فذلك خير ترجوه له، وليس فقدًا لمكانتك. لا تبق حاجته إليك حية كي تشعر بقيمتك. معنى الإحسان أن ينفع الآخر، ولو كان من تمام النفع أن يستطيع بعد حين أن يمضي دون مساعدتك المستمرة.

المواساة التي تعود إلى صاحبها تربية

ربما علمك قربك من متألم أن كلامًا كنت تردده كان أسرع من فهمك، وأن هناك أعمالًا صغيرة لم تكن ترى قدرها. خذ هذا التعلم بتواضع، ولا تجعله سببًا لإدانة كل من لم يعرف ما عرفت. نبه برفق إلى العبارة المؤذية، وقدم بديلاً صادقاً، واذكر أن أحوال الناس تستحق مزيداً من الاستماع.

واحفظ لنفسك نصيباً من الراحة والعون إذا طال دورك. من أراد أن يظل معيّنًا يحتاج إلى أن يعرف قدرته، وأن يؤدي حقوقه الأخرى، وألا يعد بما لا يملك. قد تقول لا أستطيع هذه المهمة لكنني أستطيع تلك؛ وهذا أصدق من موافقة واسعة

يتبعها انقطاع. الرجاء في فضل الله لا يلزمك بأن تكون قادرًا على كل شيء.

وإذا انتهى اللقاء ولم تر أثرًا ظاهرًا لكلامك، فلا تستعجل الحكم. ربما كان أهم ما وقع أن شخصًا لم يبق وحده في ساعة صعبة، أو أن حاجة قضيت دون أن يعرفها الناس. نرجو الخير من الله، ونحفظ صدق ما فعلنا، ولا نصنع للمواساة نتائج نعلنها بلا علم. بعض الرحمة يعيش في تفاصيل لا تتحول إلى خبر، ويكفي صاحبها أن يقصد بها وجه الله.

الفصل الخامس والعشرون

إعادة البناء بعد المحنة

قد تكون بداية الخروج من الشدة أقل وضوحًا من بدايتها. لا يأتي يوم يعلن فيه كل شيء أنه عاد كما كان؛ تنفرج جهة وتبقى أخرى، وتعود قدرة بينما تتغير قدرة، ويخف هم ثم يظهر عمل مؤجل كان مختبئًا وراءه. يحتاج الإنسان في هذه المرحلة إلى رجاء يصحب البناء، كما احتاج إليه في ساعة الألم. لا يتعامل مع كل أثر باق بوصفه دليلًا على فشل الفرع، ولا يظن أن مجرد انتهاء الخبر العاجل أنهى كل ما ترتب عليه.

إعادة البناء اسم واسع لأعمال متفاوتة: ترتيب بيت بعد فقد، أو العودة إلى عمل بعد انقطاع، أو إصلاح ثقة أفسدها خطأ، أو تنظيم نفقات بعد ضيق، أو تعلم العيش مع قدرة تغيرت. هذا الفصل يقدم معاني عامة للتفكير في هذه المرحلة، ويبقى لكل مسألة أحكامها وأهل اختصاصها. فلا تكون الموعظة بديلاً عن خطة علاج أو تسوية حق أو استشارة تحتاج إلى تفاصيل الواقع.

ما الذي انتهى وما الذي بقي

من الخطوات النافعة أن تصف الواقع الجديد دون أن تطلب منه أن يكون نسخة من القديم. قد يكون سبب الخطر قد زال، لكن الدين باق؛ وقد يكون العلاج انتهى، لكن العودة إلى بعض الأنشطة تحتاج إلى توجيه المختص؛ وقد تكون المصالحة بدأت، لكن الثقة تحتاج إلى سلوك ثابت. إذا فصلت هذه الأمور عرفت أيها يحتاج إلى شكر، وأيها يحتاج إلى عمل، وأيها يحتاج إلى انتظار لا تملكه.

أما عبارة انتهى كل شيء فقد تكون أوسع من الواقع وتمنع السؤال عن حاجات باقية، وعبارة لم يتغير شيء قد تمحو نعمًا وخطوات حدثت فعلًا. حاول أن تتكلم بقدر ما تعلم. تستطيع أن تقول إن بعض الأمور تحسن وإن جزءًا آخر ما زال صعبًا. هذا الصدق لا يضعف الشكر؛ بل يجعل الحمد متصلًا بنعمة تعرفها، ويجعل طلب العون متصلًا بحاجة تصفها.

وقد تساعدك مراجعة ما يلزمك في مدة قريبة بدل حمل العام كله دفعة واحدة. ما الحق المستعجل؟ ما المهمة التي يستطيع غيرك إعادتك فيها؟ ما القرار الذي يمكن تأجيله حتى تتضح المعلومات؟ هذه أسئلة تنظيمية يختار الإنسان منها ما ينفعه،

ولا تتحول إلى تكليف تعبدي أو معيار يلام به من لا يستطيع استعمالها وحده.

أثر المحنة ليس هويتك كلها

ربما اعتاد الناس تعريفك بما مررت به، وصار كل لقاء يدور حوله. لك أن تحفظ حقك في حياة أوسع: علم تتعلمه، وعمل تؤديه، وعلاقة لا يكون الألم موضوعها الوحيد. لا يعني هذا أن تنكر ما حدث أو أن تخفي حاجة لازمة؛ يعني ألا يلزمك أحد بالبقاء في الدور الذي عرفك فيه إلى الأبد.

وقد يكون التعريف الضيق صادرًا من نفسك. تقول أنا من فقد، أو من فشل، أو من مرض، كأن بقية صفاتك وحقوقك وقدراتك انقطعت. حاول أن ترى الوقائع كاملة: أنت إنسان مر بهذا الحدث، وله مع ذلك عبادات وروابط وأعمال ووجوه نفع. لا تحتاج إلى بطولة جديدة تثبت بها قيمتك، ولا إلى أن تعوض كل ما فات بسرعة كي يسمح لك أن تبدأ.

ومن يرافقك يستطيع أن يعينك بأن يسأل عن شؤونك العادية أيضًا، وأن يشاركك في أمر تحبه، وأن يحترم اختيارك متى تحدث عن المحنة ومتى تسكت. ليس كل انتقال إلى

موضوع آخر تهربًا، كما ليس كل عودة إلى الحزن انتكاسًا في الطريق. الحياة تتسع للمراجعة وللبناء معًا.

الروتين الذي يحمل بعض العبء

بعد اضطراب طويل قد تصبح الأعمال المعتادة أثقل مما كانت. يفيد بعض الناس ترتيب بسيط يخفف كثرة القرار: وقت معلوم لبعض الضرورات، ومكان واضح لما يحتاجون إليه، ومهمة واحدة يبدأون بها. لا نقدم ذلك علاجًا لحالة بعينها، ولا نفترض أن القدرة واحدة؛ هي وسائل يمكن تكييفها أو تركها بحسب الحال وبحسب ما يوجه إليه المختص إن كانت هناك حاجة.

والأهم أن يكون الترتيب خادمًا لك لا سجل اتهام جديدًا. إن فائتك مهمة، انظر هل كانت مناسبة لقدرتك، وهل تحتاج إلى عون، وهل يوجد حق يجب تقديمه. لا تجعل كل تعثر امتحانًا لقيمة رجائك. قد تحتاج إلى بداية أصغر، أو إلى وقت مختلف، أو إلى أن يرافقك شخص في بعض الخطوات الأولى. ومن تمام الصدق ألا تسمي كل تعب عذرًا لإسقاط كل واجب، وألا تسمي كل عجز تهاونًا. تتعلم حكم ما يلزمك بحسب حالك، وتطلب المساعدة عند الحاجة، وتعمل بما بان لك. هذه

المعرفة المحددة أرحم وأقوم من حكم عام يرفع كل مسؤولية أو يحمل النفس ما لا تطيق.

الثقة التي تعود بأفعال معلومة

إذا كانت المحنة متصلة بخطأ منك أضرب بغيرك، فإن إعادة البناء تشمل حقه في ألا يطمئن فوراً. قد تكون ندمت وبدأت التوبة، لكنه يحتاج إلى وفاء واضح ورد حق وزمن يرى فيه تغير الفعل. لا تجعل رجاءك في مغفرة الله حجة تطالبه بها أن يعيد كل صلاحية أو علاقة في اللحظة نفسها. ما بينك وبين الله له باب، وما للناس من حقوق له باب لا يلغيه صدق الدعاء.

تستطيع أن تبين ما ستغيره من سلوك، وأن تفي بما اتفقتما عليه، وأن تقبل حدوداً مشروعة لحفظ الحق. وإذا اختلفتما في حق أو شرط رجعتما إلى من يحسن النظر في الواقعة. لا تستبدلا الحكم بالتأثير العاطفي؛ فقولك إنك تألمت لا يحسم ما للآخر، وقوله إنه ما زال متألماً لا يجعل كل مطلب جائزاً بلا حد.

أما إذا كنت أنت الذي تعرض للأذى، فليس عليك أن تسمي الحذر المنضبط سوء ظن بالله. تتعلم ما لك وما عليك،

وتطلب الحماية والإنصاف بالطرق المشروعة، وتفرق بين العفو الذي تختاره وبين التعرض لضرر جديد. وقد تحتاج إلى عون مختص لفهم الموقف وترتيب ما يناسبه. حسن الظن بالله يعينك على طلب الحق برشد، ولا يلزمك بتسليم نفسك لمن ثبت أذاه.

المال والوقت بعد الضيق

قد يفتح الله لك باب رزق بعد شدة فتندفع إلى تعويض نفسك عن كل ما حرمت منه. الفرح مفهوم، لكن الحقوق التي تراكمت تستحق نظرًا قبل التوسع في رغبات جديدة. تعرف ما يلزمك وتبينه، وتستشير فيما يحتاج إلى اختصاص، وتضع ترتيبًا تستطيع الوفاء به. لا يقدم هذا الفصل خطة مالية عامة، بل يذكرك بأن شكر السعة يشمل الأمانة في استعمالها. وكذلك الوقت حين يعود إليك بعد انشغال طويل. ربما رغبت في قبول كل فرصة فأتتك أو في خدمة كل من أحسن إليك. اشكر الناس بما تستطيع، ولا تجعل الامتنان التزامًا بأعمال تفوق قدرتك وتعيدك إلى إنهاك جديد. يمكن أن ترد المعروف بكلمة صادقة أو دعاء أو خدمة مناسبة، وأن تعتذر عن غيرها دون جحود.

والتدرج هنا ليس فضيلة مطلقة لكل عمل، ولا قاعدة تغني عن معرفة الحقوق المستعجلة؛ بعض الحقوق لا يحتمل التأخير بغير عذر. إنما المقصود أن تبني اختيارك على ما يلزم وما تستطيع، لا على اندفاع لتعويض كل الماضي. ما فات لا يستعاد كله، لكن الحاضر يمكن أن يؤدي بأمانة أكبر مما لو حملته فوق سعته.

الذكرى التي تتغير علاقتك بها

قد يبقى مكان أو تاريخ أو شيء صغير يذكرك بما حدث. لا يلزم أن تزول كل الذكريات كي تكون قد بدأت حياة جديدة، ولا أن تحتفظ بكل ما يؤلمك كي تكون وفيًا. تختلف الأحوال، وقد يحتاج بعضها إلى مشورة خاصة. الذي نؤكد هنا هو ألا يحكم الناس على صدق محبتك أو صبرك من طريقة واحدة في حفظ الذكرى أو التعامل معها.

يمكن أن تحفظ فضل من فقدت بدعاء مشروع وعمل نافع بحسب حكمه، وأن تحفظ درس الخطأ بتغيير طريقته، وأن تحفظ معروف من أعانك بالشكر. هذه أفعال تعرف مقصدها، وليست التزامًا باستمرار درجة معينة من الألم. وقد يأتي يوم

تستحضر فيه الذكرى بسكينة ويوم آخر تحزن فيه؛ لا تجعل تفاوت الحال تناقضًا يحتاج كل مرة إلى إدانة.

ومن الرحمة أن تتعلم متى تشارك الذكرى ومع من. بعض الناس يحسن الاستماع وبعضهم لا يعرف كيف يجيب، وليس كل رد ضعيف تعمدًا للإساءة. اختر من تأمنه فيما تحتاج، وبين له ما ينفعك إن استطعت. ويمكن أن تقول إنك تريد أن يسمع فقط، أو أنك تطلب رأيًا في أمر محدد. هذا الوضوح يخفف سوء الفهم ويحفظ المحبة.

رجاء لا يشترط استعادة الماضي

قد لا تعود بعض الأمور إلى صورتها الأولى. هذه حقيقة مؤلمة أحيانًا، لكنها لا تعني أن أبواب الخير كلها انغلقت. الرجاء بالله أوسع من استعادة نسخة بعينها من حياتك. تعرف من أسمائه ووعد ما يدعوك إلى حسن العبودية، وتسأله الخير في الحال الذي صرت إليه، وتأخذ بما تستطيع من الأسباب.

ليس مطلوبًا أن تحب كل ما وقع لك أو أن تصف الألم بأنه نعمة قبل أن تعرف معنى قولك. يكفي أن تؤمن بعدل الله وحكمته، وأن تسأله الأجر والعوض والعافية، وأن تعمل بما بان لك. وقد يتعلم الإنسان خيرًا من محنته دون أن يصير

قادرًا على تمنى وقوعها؛ فلا تلزم الناس بتعبيرات لا يطبقونها
لتختبر إيمانهم.

تنمو الحياة الجديدة أحيانًا من أفعال لا تلفت النظر: حق أدي،
وعون قبل، ومعلومة تعلمت، ونوم أمكن، وعلاقة أصلحت
بقدر ما يصلح منها. نرجو من الله أن يبارك في ذلك، ولا نزع
أنه يمحو كل أثر في موعد محدد. حسب العبد أن يجد في
كل مرحلة بابًا إلى ربه، وأن يمضي في المتاح من الخير وهو
يعلم أن خزائن فضل الله لا يحصرها تصويره.

الفصل السادس والعشرون

أسبوع في بيت يحاول أن يستعيد اتزانه

هذه حالة افتراضية للتأمل تجمع بعض معاني المجلد، ولا تصف أسرة بعينها. انخفض دخل أسرة، واحتاج أحد الوالدين إلى مساعدة مستمرة، وتعثر ابن في دراسته. لم يقع كل ذلك في يوم واحد، لكن اجتماع الأمور جعل كل فرد يشعر أنه يحمل وحده ما لا يراه الباقون. نحكي أسبوعًا من محاولتهم تنظيم ما يستطيعون؛ لا أسبوعًا تزول فيه كل مشكلاتهم، ولا نموذجًا يقاس عليه كل بيت.

نحتاج إلى هذا النوع من القراءة لأن المعنى قد يبدو واضحًا حين يشرح منفردًا، ثم يختلط حين تتعدد الحقوق ويتعب الناس. الصبر والرجاء والرفق وأداء الأمانة لا تتنافس على أن يكون واحد منها اسم المرحلة كلها؛ يجتمع كل منها في موضعه، ويتعلم أفراد البيت أن ينظروا إلى الواقع بصدق بدل البحث عن وصف واحد يريحهم من تفاصيله.

اليوم الأول: أن يسموا ما يثقل عليهم

بدأ الحديث باتهامات عامة: لا أحد يشعر بي، وكل شيء يقع علي، ولم يعد في البيت خير. كانت العبارات تصف شدة الشعور أكثر مما تصف الوقائع. اتفقوا على أن يتحدث كل فرد عن مهمة محددة تثقل عليه، دون أن يحكم على محبة الآخرين أو إيمانهم. ظهر أن بعض العبء ناشئ من عدم معرفة ما يفعله الآخر، وأن بعضه لا يزال بلا صاحب واضح. لم يحل هذا الحديث ضيق المال ولا حاجة الوالد إلى الرعاية، لكنه جعل موضع العمل أقرب. صاروا يعرفون المهمة التي يمكن توزيعها، والموعد الذي يحتاج إلى ترتيب، والسؤال الذي يلزم عرضه على مختص. ولم يطلبوا من أنفسهم أن يتفقوا في شعور واحد؛ يكفي أن يتفقوا على حق معلوم وخطوة ممكنة.

اليوم الثاني: مساعدة لها حد واضح

عرض قريب أن يعينهم، وكان من السهل أن يجيبوا بعبارة واسعة ثم يبقوا محتارين. حددوا مهمة واحدة يستطيعها في وقت معلوم، وقبل أن يفعلها سأل عن القدر الذي يحتاج إلى معرفته من المعلومات. لم تتحول المساعدة إلى فتح كل

أسرار البيت، ولم يجعلها المعين دينًا عاطفيًا يعود إليه كلما اختلف معهم في أمر آخر.

بقيت مهام لا يستطيع هذا القريب حملها، ولم يعد ذلك إخلًا لأنه لم يعد بها. تعلم أهل البيت أن الوضوح في حدود المعونة يحفظ الشكر ويقلل التوقعات التي لا أصل لها. ومن احتاج منهم إلى مساعدة من نوع آخر بدأ بالسؤال عن يعرفها، بدل أن يطلب من أقرب شخص أن يكون قادرًا على كل شيء.

اليوم الثالث: كلمة تحتاج إلى إصلاح

صدر من أحدهم في التعب كلام جارح إلى الابن بسبب تعثره. في اليوم التالي لم يكتف بالقول إنه كان يريد مصلحته، بل سمى العبارة التي أخطأ فيها واعتذر عن الإهانة. ثم فصل بين الاعتذار وبين الحاجة إلى فهم التعثر الدراسي. جلسوا ليعرفوا ما يحتاج إليه الابن من تنظيم أو شرح أو عون، دون أن تجعل درجته حكمًا على مستقبل حياته كله.

لم يتحول الاعتذار إلى مطالبة الابن بنسيان ما سمع فورًا، ولم يمنع الألم من أن يكون له دور في الخطوة التالية بحسب قدرته. هنا اجتمع حقان: إصلاح طريقة الكلام، والعمل على

المسألة الواقعية. لو اكتفوا بإدانة أنفسهم جميعًا لما تعلموا شيئًا، ولو اكتفوا بتبرير القسوة لضاع باب الثقة.

اليوم الرابع: خبر يحتاج إلى تحقق

وصلت رسالة تعد بحل سريع لضيق المال مقابل التزام لم يفهموا تفاصيله. أغرتهم الحاجة بأن يفسروا وصول الرسالة على أنه علامة يجب ألا يفوتوها. ثم تذكروا أن الفرج المرجو لا يعفي من السؤال. طلبوا معلومات يمكن التحقق منها، وعرضوا ما يحتاج إلى حكم وخبرة على أهله، وامتنعوا عن التصرف حتى يفهموا ما سيلتزمون به.

لم يقولوا إن كل فرصة تأتي في الضيق خداع، ولم يقولوا إن كل ما يريحهم صحيح. حفظوا الرجاء والاحتياط معًا. قد تقودهم المعلومات إلى قبول وجه مشروع من العرض أو إلى تركه، وفي الحالين يبقى صدق النظر جزءًا مما يستطيعون، أما النتيجة التي لا يملكونها فيسألون الله خيرها.

اليوم الخامس: ساعة سعة لا تحتاج إلى تبرير

وجد أهل البيت وقتًا قصيرًا يجلسون فيه على حديث عادي فضحكوا. ثم شعر بعضهم بالحرص: كيف نفرح وما زالت

حاجاتنا قائمة؟ أدركوا أن لحظة السعة لم تسدد الدين ولم تنسهم الوالد، لكنها أعانتهم على حمل بقية اليوم. لم يجعلوا الفرح إنكاراً للمشكلة، ولا جعلوا المشكلة أمراً يحرم كل راحة مباحة.

ومن كان منهم لا يرغب في المشاركة ترك له حقه دون اتهام. لا يلزم أن يصل الجميع إلى السكينة في الساعة نفسها. تعلموا أن يتيحوا مساحة للفرح ومساحة للصمت، وأن ينتبهوا إذا ظهر احتياج يتجاوز ما يستطيعون تقديمه فيطلبوا له العون المناسب.

اليوم السادس: مراجعة دون محاكمة للقلوب

راجعوا ما اتفقوا عليه. أنجزت مهمتان، وتأخرت ثلاثة لأن من حملها لم يكن يملك وسيلتها. بدل وصفه بأنه لا يبالي، صححوا المعلومة التي بني عليها الاتفاق، ونقلوا جزءاً من المهمة إلى من يستطيع. وظهر تقصير آخر كان سببه النسيان، فبحثوا عن طريقة تذكير أبسط. اختلف السبب فاختلّف الإصلاح.

لم يضعوا درجات لصبر كل فرد ولا مقياساً لقربه من الله. نظروا في الأعمال التي تخصهم، ودعوا لأنفسهم بالهداية

والعون، واحتفظوا لكل إنسان بسريره. كان في هذا أدب عملي يحمي البيت من تحويل الدين إلى وسيلة مراقبة لا تنتهي، مع بقاء المسؤولية عن الحقوق واضحة.

اليوم السابع: ما لم يتغير وما تغير

في نهاية الأسبوع لم يرتفع الدخل فجأة، ولم تنته حاجة الرعاية، ولم تصبح الدراسة سهلة كلها. لكن بعض المهام صار معلومًا، وقبلوا معونة تحفظ الكرامة، وصحح اعتذار كلمة مؤذية، وتوقفوا عن قرار لم يفهموه بعد. هذه تغيرات محدودة حقيقية؛ يستطيعون شكر الله عليها دون الادعاء أن الأزمة انتهت.

كما استطاعوا أن يقولوا إنهم ما زالوا متعبين. لا يلغي هذا التعب ما فعلوه، ولا يلزمهم أن يختاروا بين حمد الله ووصف حاجتهم. يسألون ربهم الفرج والبركة والعافية، ويواصلون التعلم والعمل بحسب ما يستطيعون. وإذا احتاجت بعض أمورهم إلى دعم متخصص، كان طلبه جزءًا من السعي لا إعلانًا بانهيار رجائهم.

ما الذي تأخذه إلى بيتك

قد لا تشبه أسرتك هذه الأسرة، وقد تعيش وحدك أو مع أشخاص تختلف معهم في كثير من الأمور. لا تحمل إليهم المثال كخطة تلزمهم بها. خذ منه الأسئلة التي تعين على الصدق: ما الواقع الذي نعرفه؟ ما الحق الأقرب؟ ما المساعدة الممكنة؟ أي كلمة تحتاج إلى إصلاح؟ وأي أمر ينبغي أن يسأل عنه أهله؟

وإذا لم يكن الحوار الآمن ممكنًا، أو كان في العلاقة أذى يستدعي حماية، فلا تجعل المثال سببًا للبقاء في ضرر أو لتحمل مسؤولية إصلاح الجميع وحدك. لكل حال باب يناسبها من طلب الحق والعون المختص والحدود المشروعة. غرض الحالة أن تشرح التعاون حيث أمكن، لا أن تفترضه قائمًا في كل بيت.

تعود هذه الصفحات بالقارئ إلى ما بدأ به المجلد: الحياة تتقلب، والعبد لا يملك أن يجعلها كلها على هواه. لكنه يستطيع أن يرجو ربه، وأن يصدق فيما يعلم، وأن يصلح ما يقدر عليه، وأن يرفق بمن يشاركه الطريق. وقد يكون في يومه من الخير ما لا يراه لأنه ينتظر علامة أكبر؛ فليحفظ الخير الحاضر، وليدعُ بما يرجو، وليترك علم الغيب لله.

خاتمة

لن تكون أحوال الحياة كلها مفهومة لك، ولن يكون شعورك في كل يوم على درجة واحدة. لكن يمكنك أن تحفظ صلتك بالله في الحال التي تعيشها: تسأله، وتعمل بما تقدر عليه، وترجع عن الخطأ، وتطلب العون، وترجو ثوابه فيما لا تستطيع دفعه.

وحين يضيق الكلام، يبقى الدعاء. وحين لا تعرف ماذا سيأتي، يبقى بين يديك عمل حاضر. وحين تفقد بعض ما تحب، لا ينقطع بذلك خبر الله عن رحمته وعدله وفضله. تعود إليه بما عندك من حاجة، وتسأله أن يعينك على يومك وأن يجعل عاقبتك إلى خير.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح.

مسلم بن الحجاج. الصحيح.

النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

ابن حجر، أحمد بن علي. فتح الباري شرح صحيح البخاري.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.